(و) الطب عند قدماء المصريين

للدكتور بول غليونجي

مقـــدمة

اذا ما نحن بحثنا عن أصـــول الطب البشرى ، فاننا نجد فى أول عهد كل حضارة به ، عصر ألـّه ما أحاط به من معالم وأحداث، وآمن بتحكمها فى كل دقيقة من حيـــاته ، وبتدخلها فى كل خطوة منها ، فخلق السحر ، أو الطب الفـــلكى ، أو الطب الكهنوتى ، أو مختلف ضروب العلاج الروحانى ، حسب الصورة التى صورها للكون ، لمحاولة التأثير عليها .

وقد اختلف علماء السلالات فى النـــحو الذى تبعه الطب فى أول أمره . فمنهم من رأى أنه بدأ عمليا تجريبيا تابعـــا لمقتضيات الحياة اليومية ، وأنه لم يصطبغ بالطـــابع السحرى أو الدينى الا عندما استيقظ ذهن الانسان ، فبدأ يتأمل فيما يحيط به . ومنهم من قال ، عـــلى نقيض ذلك ، ان الطب بدأ بالسحر والشعوذة ، قبل أن يصنف الملاحظات الواقعية .

الا أن المصرى القديم ، عـــلى عكس الاغريق ، كان بعيدا عن التفكير فيما وراء الطبيعة وعن النظريات الافتراضية ، واعتمد فى تشييد حضارته على تكديس الملاحظات الواقعية والاستفادة منها ، فأضـــاف بذلك خبرة عملية الى فطنته الغـــريزية ، سرعان ما أدتا الى تناقض بيـّن فى أساليب تفكيره ، لبقاء رواسب متخلفة من الفكر العتيق شابت ما حققته نزعته التجريبية ، وهـــذا المزاج العجيب سنصادفه فى كل خطوة من دراستنا لطب قدماء المصريين .

وقد مرت عـــلى الطب — طوال تاريخ مصر الفرعونية الذى استغرق ٤٠٠٠ سنة — عهود متباينة كل التباين من حيث الحضارة والعقيدة ، والنظرة العامة الى الحياة ، فقد عاصر خلالها على التعاقب عهد آلهة القنص والزراعة ، ثم آلهة القبائل ، ثم محـــاولات التوحيد ، ثم حقبة التدهور والفوضى التى ميزت الاحتلال الآسيوى ، ثم عهد الفتوحات المجيدة ابان المملكة الحديثة ، الذى وصـــل فيه الطب الى قمة تحقيقاته وتجرد الى حد كبير من طابعه اللاهوتى ، ثم حكم الفرس بعد القرن السابع ق . م . الذى عـــاد فيه الى الركود المدرسية والشعوذة .. وعـــلى مر هذه الحقب المتباينة استطاع الطب الفرعونى أن ينتشر فى أنحاء العالم المعروف حينذاك ، كما أنه تشرب بدوره بعقائد جيرانه ؛ ولذا فانه لا يمكن حصره بأطواره المختلفة وألوانه المتباينة فى اطار واحد ، اذ أنه لم يسر فى طريق مستقيم ، ولم يتجمد فى صورة واحدة فى أى مرحلة من مراحله .

ويمكن رد أصول معرفتنا لهذا الطب الى ما جاء فى الديانة واللغة والى لفائف البردى التى اكتشفت حتى اليوم ، والى ما دوّن على جدران المعابد والمقابر ، والى ما عثر عليه من المموميات والجثث . وأغلب تلك المعلومات يقارن المملكة الحديثة .

أما طب العهد القديم والعهد السابق للأسر فان ما نعرفه عنه ضئيل لا يتعدى ما جاء فى كتابات المؤرخين القدامى من أن أثوتيس ابن مينا وضع كتابا فى التشريح ، الأمر الذى يحمل على الاعتقاد أن الطب كان قد وصل الى درجة لا بأس بها من الازدهار قبل ذلك العهد النائى ، وما ذكر فى بعض القراطيس من أن بعض محتوياتها ترجع أصوله الى الأسرة الثانية ، وما رواه عن المصريين مؤرخو الاغريق وأطباؤهم ، وما يمكن استنباطه من المسلك الذى سلكه الطب فى الحضارات الزراعية الأخرى ، لما فى تلك الحضارات من التشابه فى العقائد والطقوس بالرغم من تباعدها فى الزمان أو المكان .

قراطيس البردى : تاريخها وأصولها ومحتوياتها

لقد أدت الأبحاث اللغوية الدقيقة ، ودراسة الأساليب التى كتبت بها هذه القراطيس الى اليقين بأنها منسوخة كلها من أصول ترجع الى عهد سحيق بالرغم من أنها جميعا كتبت فى الفترة بين ١٨٠٠ و ١٣٠٠ ق . م . وهذه المخطوطات نفسها تتضمن أدلة على ذلك ، مثل ذكر معلومات عن المراجع الأصلية أو ورود عبارات مثل « وجد ممزقا » أو « لا توجد كتابة » تدل على أنها منسوخة من أصل ممزق أو قديم ؛ أو هوامش تفسيرية لكلمات أصبحت عتيقة عند النسخ ؛ أو تعليقات من القراء ، وكلها مكتوبة بنفس اليد .

أما أصول ما ورد فى الوصفات ، فان القراطيس تنسب أكثرها الى الآلهة والقليل منها الى أشخاص آدميين ، والأغلب أنها مستقاة كلها من الموسوعات الطبية التى ترجع الى عدة قرون قبلها ، والتى لا نعرف شيئا عن مكان نشأتها أو عن مؤلفيها .

أهم قراطيس البردى ؟

ان أهم القراطيس التى كشف عنها حتى اليوم ثمان ، وقد أطلق عليها أسماء كاهون ، وأدوين سميث ، وابرز ، وهرست ، وبرلين ، وشستربيتى ، ولندن ، وكارلزبرج . وهناك

مخطوطات أخرى فى مجموعات فردية وهى لفائف ثانوية .. ثم هناك — من هذه الأوراق — تلك الثروة التى لا تزال دفينة فى أرض مصر الضنينة بها .

وكانت عملية النسخ تتم على يد الكتاب المحترفين لا بواساطة الأطباء ، وكانت تلك المخطوطات كثيرة التداول كما يظهر من بعض العبارات الواردة على الهوامش مثل : « جربت هذا ووجدته مفيدا » أو « هذا طيب » مما يدل على أن المخطوط منقول بحذافيره وهوامشه من غيره ، اذ أن تلك الهوامش مدونة بخط الناسخ نفسه .

١ — قرطاسة أدوين سميث

كتبت سنة ١٥٥٠ ق . م . ولا يمكن الجزم بنظرية برستد القائلة بأنها أكثر قدما من قرطاسة ابرز . وهى تحتوى على كتاب الجروح الذى يرجع اليه الفضل فى قيمتها الفائقة ، وعلى ظهرها دونت اشارة لعلاج أمراض المستقيم ، وكتابة عنوانها ، « لأبعاد هواء سنة الطاعون » تزخر بالتعاويذ ، وأخرى لمرهم يعيد الشباب الى الشيوخ .

أما الجزء الأول فانه يشمل ٤٨ مشاهدة واقعية فى جراحة العظام والجراحة العامة ، مقسمة تبعا لتقسيم الجسم من الرأس فالأنف والفك وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والأضلاع والصدر والترقوة والكتف واللوح واليدين حتى العمود الفقرى ، ومن المرجح أنه كان يشمل كل أجزاء الجسم حيث ان آخر مشاهدة فيه وهى خاصة بالعمود الفقرى تختتم بعبارة ناقصة .

ويلاحظ أن طريقة العرض فى هذه القرطاسة تتسم بالنظام والدقة .. فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان الآتى : « تعليمات بشأن .. » ثم يجىء الفحص : « اذا فحصت رجلا به .. » ويتبعه التشخيص : « قل فيما يخصه .. » وما يتوقع حصوله من مآل طيب أو مشكوك فيه أو ميئوس منه معبرا عنه باحدى العبارات التالية : « سأعالجه » أو « سأكافحه » أو « مرض لن أعالجه » ، وبعد ذلك يأتى العلاج . وهذا الجزء الأول من القرطاسة يمتاز بواقعية الملاحظة والخلو من النظريات والسحر والشعوذة التى تزخر بها المؤلفات الأخرى ، وربما كان ذلك لأنه يتناول جروحا يسببها فعل خارجى معروف ، لا أمراضا ذات أسباب خفية يمكن ارجاعها الى الآلهة والأرواح .

وقد قال برستد ان هذا الجزء من اللفافة أقدم ما كتب عن الجراحة فى العالم ، وأنه لابد قد أحدث ضجة كبيرة فى المجال الطبى عند ظهوره ، وقد نقل أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين الى اللغة العربية هذه القرطاسة

التى قال عنها انها كانت نقطة التحول بين فن العـلاج وعلم الطب ، وحلل نفسية المؤلف تحليلا أضاء به ظروف مزاولة الطب فى تلك العصور ، اذ رأى فى المؤلف شخصا يختلف عن الكاهن الساحر ، وانسانا عاديا يلازم المرضى ليالى طويلة ويترقب أدنى علامـات الابراء فيهم ، ثم يرتب ويبوب ملاحظاته ، ولا يقصر فى تشريح الموتى ليعرف سر الوفاة ، ثم يملى ملاحظاته فى لغة طبيعية متجنبا كلام المتفقهين ، وبذلك استبعد أن يكون مؤلف القرطاسة — كما قال بريستد — أمحوتب أو غيره ممن تلقوا العلوم عن الكهنة ودرجوا على أسلوبهم فى التفكير ، أو أنه كان جراحا عسكريا ، اذ أن ظروف الحروب لا تسمح بملاحظة الجريح مدة كافية والاشراف الكامل على تطور حالته . ولما كانت الاصـابات المذكورة فى القرطاسة من النـوع الذى قد يتسبب عن سقوط من ارتفاع شاهق ، فقد بدا مؤلفها كما لو أنه قد عاصر بناء أحـد الأهرامات التى كان يستغرق تشييد الواحد منها ما يقرب من ثلاثين عاما ، والتى كان العمال يصابون بلا شك أثناء العمل بهـا باصابات مختلفة ، وبما أن هـذه الحوادث كانت تقع فى أزمنة متباعدة يسـمح تباعدها بالتأمل الطويل وتتبع تطور حالة كل مصاب ، فقد رجح كامل حسين أن يكون مؤلف هذه البردية قد اشترك فى بنـاء أحد هـذه الأهرامات .

٢ — قرطاسة أبرز

هى المرجع الأساسى لمعرفتنا للأمراض الباطنية والعلاج ، وقد وصلت الينا كاملة بدون تشويه ، وهى تحمل تاريخ السـنة التاسعة من عهـد أمنوفس الأول (أى ١٥٥٠ ق . م .) وهى عبارة عن مجموعة من مؤلفات وبحوث فى مواضيع مختلفة وصلت الى الكاتب فنسخها حسب ترتيب وصولها ، ويمكن حصرها لاعطاء فكرة عن علم هـذا الوقت ومدى التخصص فيه عـلى الوجه الآتى :

١ — توسلات الآلهة .
٢ — الأمراض الباطنية وعلاجها .
٣ — وصفات لأمراض العيون .
٤ — وصفات لأمراض الجلد .
٥ — وصفات لأمراض الأطراف .
٦ — وصفات مختلفة .
٧ — أمراض النساء وعلاجها .
٨ — مؤلفان عن القلب والشرايين ، وهمـا المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا الينا فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء .
٩ — الأمراض الجراحية وعلاجها ، وهذا الجزء لم يتناول الجروح وانما اقتصر على الأورام والخراريج .

ومما يدل على نظرة المصريين الى المرض

أن تستهل هذه القرطاسة المهمة على الشكل الآتي :

« هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجـزاء الجسم وأمراضه ، وقد وُلدت فى هليوبوليس مع كهنة حت — ات ســـادة الحماية وملوك الخـلود والنجدة ، وُلدت فى سايس مع آلهات الأمومة .. ومنحنى سيد الكون كلمات استعين بها على طرد الأمراض عن الآلهة » .. وهكذا يبـــدو لنا الطب الفرعونى مصبوبا فى قالب من السحر .

أما القسم الجــراحى والقسم الخاص بأمراض « فم المعدة » فهما مكتوبان بنفس طريقة قرطاسة ادوين سميث ، وتحوى هذه القرطاسة أول تفسير للحياة مبنى عـــلى تأملات فلسفية وغير معتمد على الأساطير .

كما أن جزءا منها اشتمل على مجموعة وصفات طبية جعلت منها فارماكوبيا هـــذا العصر وهـذا بسبب تناولها الكثـــير من الأمراض الباطنة . وقد تعرف « ابيل » فيها على أمراض عدة ، منها التورم والاستسقاء والقيلة المائية والانفيخيم والجزام ، الا أن علماء اللغة لم يرضوا عن ترجمته وتفسيراته اذ أن تلك الأسماء لم يصحبها وصف يبرر هذه الترجمة ، مما أدى الى الرأى بأنه تجاوز الحدود المعقولة فى التفسير .

ثم هناك

٣ — قرطاسة كاهون فى أمراض النساء والولادة والتكهن بالحمل وهى أقدم اللفائف المعروفة (١٩٠٠ ق . م .) وتحتوى أيضـا على جزء فى الطب البيطرى .

٤ — قرطاسة هرست ، وهى قريبة من بردى قرطاسة ابرز فى المعنى والتاريخ .

٥ — قرطاســة برلين ، مجمـــوعة من وصفات وتشخيصات وتعاويذ ، وهى أحدث من قرطاســـتى ادوين ســميث وابرز (١٣٠٠ ق . م .) .

٦ — قرطاسة لندن وهى مزيج من الطب والسحر وبها وصفات قليلة وتعاويذ كثيرة ، وهى مسيحة ، أى أن الكتابة مسحت عنها ليكتب عليها ثانية ، مما جعل قراءتها صعبة .

٧ — قرطاســة كارلزبرج فى كوبنهاجن (١٢٠٠ ق . م .) موضوعها أمراض العيون والولادة وهى تكاد تكون منقولة نقلا حرفيا من باب الرمد فى قرطاسة ابرز .

المـــدارس

من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب فى مصر الفرعونية ترجع الى عهـــد الأسرة الأولى ، وبعض هذه المدارس بلغ شـــهرة كبيرة ؛ من بينها مدرسة ايونو (هليوبوليس عند الاغريق) ، ومدرسة أنشئت فى سايس للمولدات اللاتى كنّ يقمن بدورهن بتدريس علم أمراض النساء للأطباء أنفسهم ، ومدرسة أمحوتيب بمنف التى زادتها شهرة مكتبتها ، والتى كان يتردد عليها الأطباء حتى عهـــد جالينوس (القرن الثانى الميلادى) .

ويعتبر « لفبر » Lefelure أن تلك المدارس التى سميت « بيوت الحياة » كانت على شكل حوانيت للنساخين الذين كانوا على جانب كبير من العلم ، وأن الطلبة كانوا يترددون عليها لمقابلة الفلاسفة والعلماء ؛ ويضيف ان التعـليم الاكلينيكى كما نفهمه اليوم لم يكن له وجود ما . وقد قال ديودور الصقلى أن هذا التعليم كان ينقل من الطبيب

الى ابنه شفويا حرصا منه علــى الاحتفاظ بسرية علمه . وهــذه التقاليد العائلية اتسم بها الطب فى كل بلاد العالم القديم ، فنحن تجده عند الاغريق وقفا على الأسقلبياد سلالة أسقلبيوس التى كان ينتمى اليهــا أبقراط وجالينوس ، ونرى أبقراط يفرض عــلى الأطباء قسما يوعز بمثل هــذا الكتمان . واستمر الأطباء يتبعون هــذه التقاليد حتى العصر المسيحى ، فقد وردت فى اللفــافة القبطية التى درسها « شاسينا » Chassinat العبارة الآتية : « هذه قطرة حضرتها مــع أبى » .

وعندما أباح أمازيس (أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين) للأجانب دخول مصر ، حضر اليها عدد كبير من الاغريق ليتلقوا فيها العلم ، من بينهم عباقرة عصرهم أفلاطــون وأودوكسوس وأبقــراط ، غــير أنه من المشكوك فيه أن يكون الكهنة قد ائتمنوهم على علومهم السرية .

وبالرغم من الهيبة التى أحاطت بهــذه المدارس فقد عانت من نتيجة بعض الغزوات ونخص بالذكر غزوة قامبيز الذى أمر بهدم المعابد عقابا للمصريين عندما رآهم يحتفلون بعيد الحصاد بعد عودة حملته الفاشــلة من الجنوب فظنهم مبتهجين بهزيمته ، وقد أعاد بناء بعضها ابنه دارا الأول لاستمالة المصريين فكلف بهذه المهمة أحد موظفيه فى فارس هو المصرى « أوجاحورسنت » الذى روى كيف أدى هذه المهمة فى نقش سجله على تمثال له محفوظ الآن بمتحف الفاتيكان (شكل ١) .

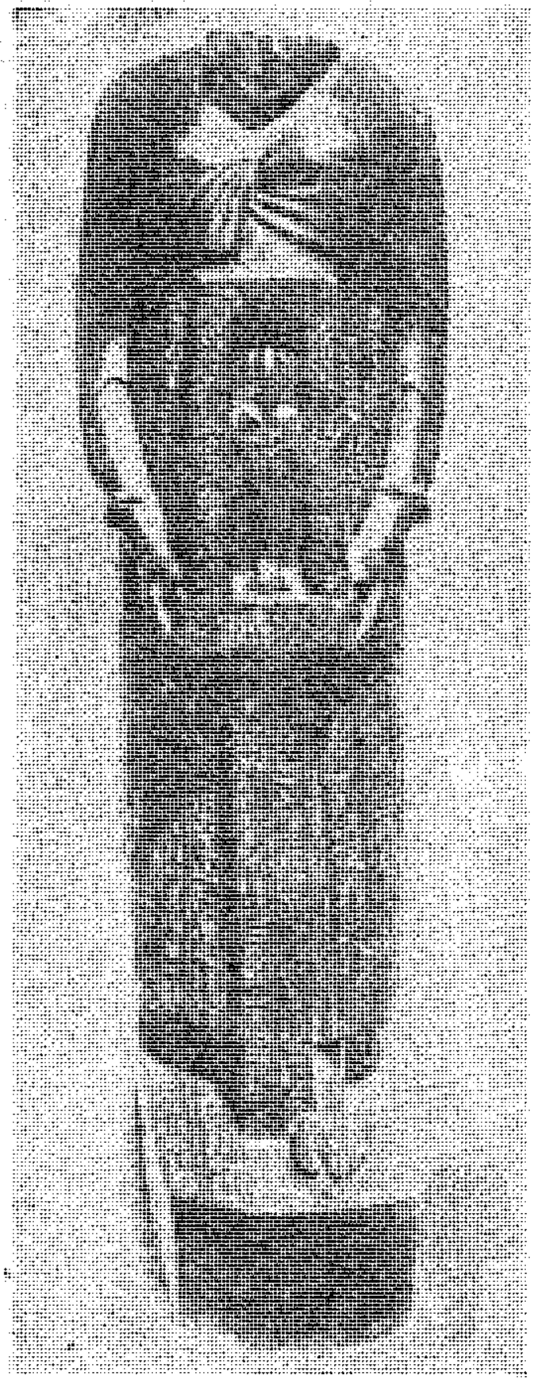

شكل ١

أوجا حورسنت طبيب مصرى كان طبيب دارا الخاص .

ثم أرسل الى مصر بأمر من دارا لاعادة انشاء مدارس الطب (بيوت الحياة) بعد أن هدمت

الأطبـــاء

كان الأطبـــاء يتمتعون بمكانة طبية فى المجتمع المصرى ، وكان ينظر اليهم نظـــرة ملؤها التقدير والاحترام . فقد لقب الفرعون زوسير باسم « سا » الشافى الالهى ، وروى مانيتو أن الملك أثوتيس نجل مينا ألف كتابا فى التشريح وأن الملك أوزيفايوس (٣١٠٠ ق . م .) حقق تقدما كبيرا فى علم التشريح .

وكان المتطببون يقعون فى ثلاث فئات هى : الكهنة — والأطباء — والمساعدون .

أ — الأطباء الكهنة :

كان الكهنة فى أول أمرهم عبـارة عن وسطاء بين المريض والاله الشافى ، يعرفون طرق التوسل اليه والسبيل الى اجتــذاب رضائه ، ولكنهم لم يكونوا يمارســون أى نوع من الطب ، على أنه — اذا كان أول استعمالهم للعقاقير سحريا — فانهم كانوا على جانب كبير من العــلم والدهاء ، وكانوا يعرفون النبـــاتات ويستعملونها لتعـــزيز تعاويذنهم ، وكانوا يلمون بقـدر كبـــير من الكيمياء ، وقد رد البعض كلمة كيمياء الى « كيميت » وهى اسم مصر القديم . الا أنه لا يمكن معرفة حقيقة علمهم اذ أن عقائدهم الحقيقيـــة كانت تعــد أسرارا لا تفشى الا للأخوان المكرسين ، وكانت تختلف كثيرا عما يدلون به لغير هؤلاء .

ب — الأطباء :

كان يسمى الطبيب العلمانى « سينو » والرمز الهيروغليفى لهذه الكلمة مكون من قنينـة ومشرط ، ولم يمـــيز بين الطبيب والبيطرى ..

وكان عـــدد الأطباء جسيما كما رآهم هيرودوت فى القرن الخامس ق . م . ، وكانوا على حد قوله أمهر الناس حتى انه قال انهم من سلالة « بيون » طبيب الآلهة .

وامتدت شهرتهم الى البلاد المجـــاورة فنرى فى عهد أمنوفيس الثانى أميرا ســوريا تصحبه زوجته ، ويتبعه خدم عديدون ، يأتى الى مصر محملا بالهدايا ليزور « نب آمون » طبيب فرعون فى طيبة (شكل ٢) ، ويروى

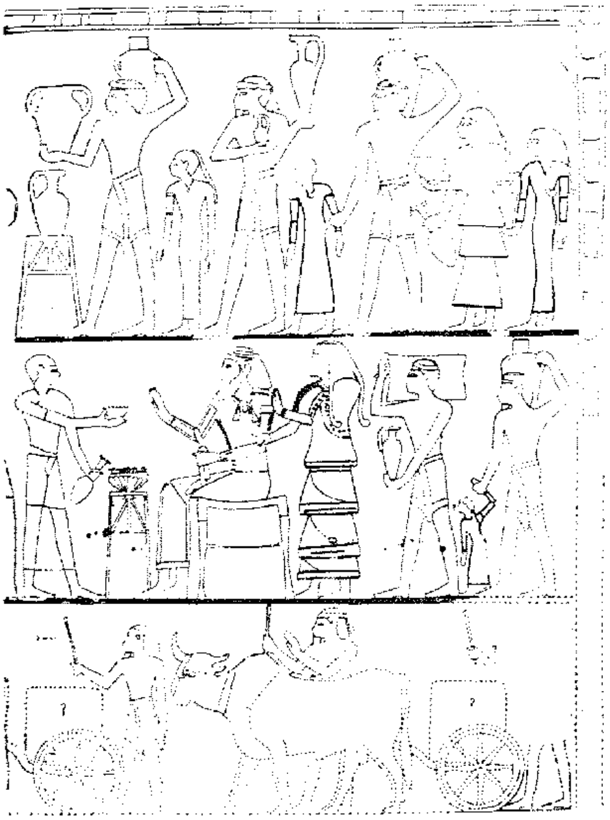

شكل ٢
فى الوسط الى اليسار يقدم الطبيب (نب آمون) اناء الى أمير ســورى تتبعه حاشـية محملة بالهدايا

أن قيروس ، عنـدما مرض الرمد ، طلب من الفرعون أحسن أن يرسل اليه طبيبا يكون أمهر أطباء مصر .

وانقسم الأطباء فى مصر الى طبقـات مختلفة :

١ ـ الأطباء الموظفون :

وهم أطباء البلاط والحكومة والجيش ، وكانت ألقابهم رنانة ، فمثلا رئيس الأطبـاء يسمى « مدير بيت الصحة ورئيس أسرارها فى بيت تحوت » . ولا غرو فان مثل هـذه الألقاب كانت تخلع على كبار الموظفين حتى وقت قريب فى العهـد العثمانى ، وكانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة ، الأمر الذى جعل علاج الفقير مضمونا . وكانوا يتبعون الجيش فى تحركاته حتى انه نشأت فئة خاصة هى فئة الأطباء العسكريين ، وهم ولا شـك النواة التى أدت الى تقدم الجراحة فى هـذا العصر ، وكان بعضـهم ملحقا بالمصـانع أو محال العمل ، كما يظهر ذلك فى شكل وجد على جدار محجر حتنوب (شكل ٣) يمثل طبيبا ملحقا بالمحجر ، وألقابه « رئيس كهنة سخمت ، رئيس السحرة وطبيب الملك » . وفى مقبرة « ايبى » المعمارى ، وبينهم شخص يعدل كتفا مخلوعا ، وآخر ينتزع من عين أحد العمـال جسما غريبا بينما يتألم ثالث من « شاكوش » وقع على قدمه (شكل ٤) .

ولا يوجد أثر لأى وصفات « روشتات » يتركها الطبيب للمريض . أما قطع الخـزف (أوستراكا) التى وصـفها « جونكير » فالغالب أنها كانت مذكرات كتبها طبيب عند زيارته للمريض للاسترشاد بها عند تحضـير الدواء بعد عودته الى منزله .

والظاهر أنهم الى جانب أعمالهم الرسمية كانوا يزاولون مهنتهم من أجل الجمهـور ، ويتقاضون منه أتعابا غير ضئيلة ، ويحظون

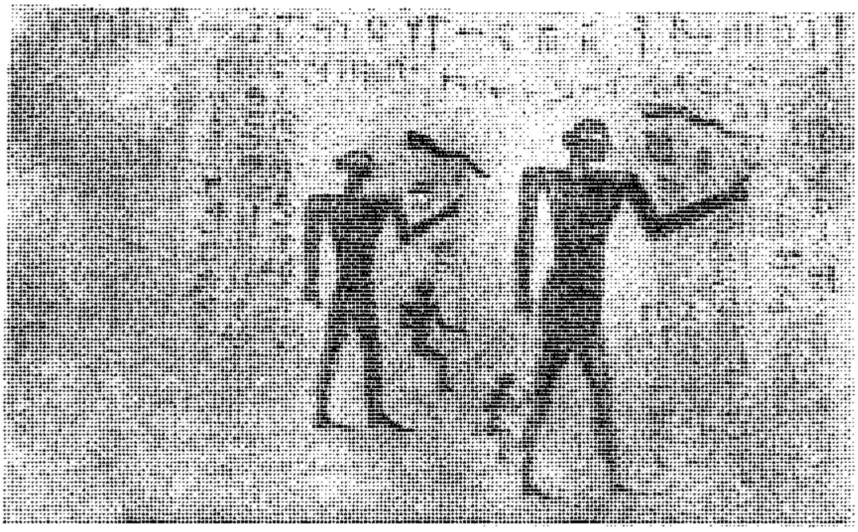

شكل ٣

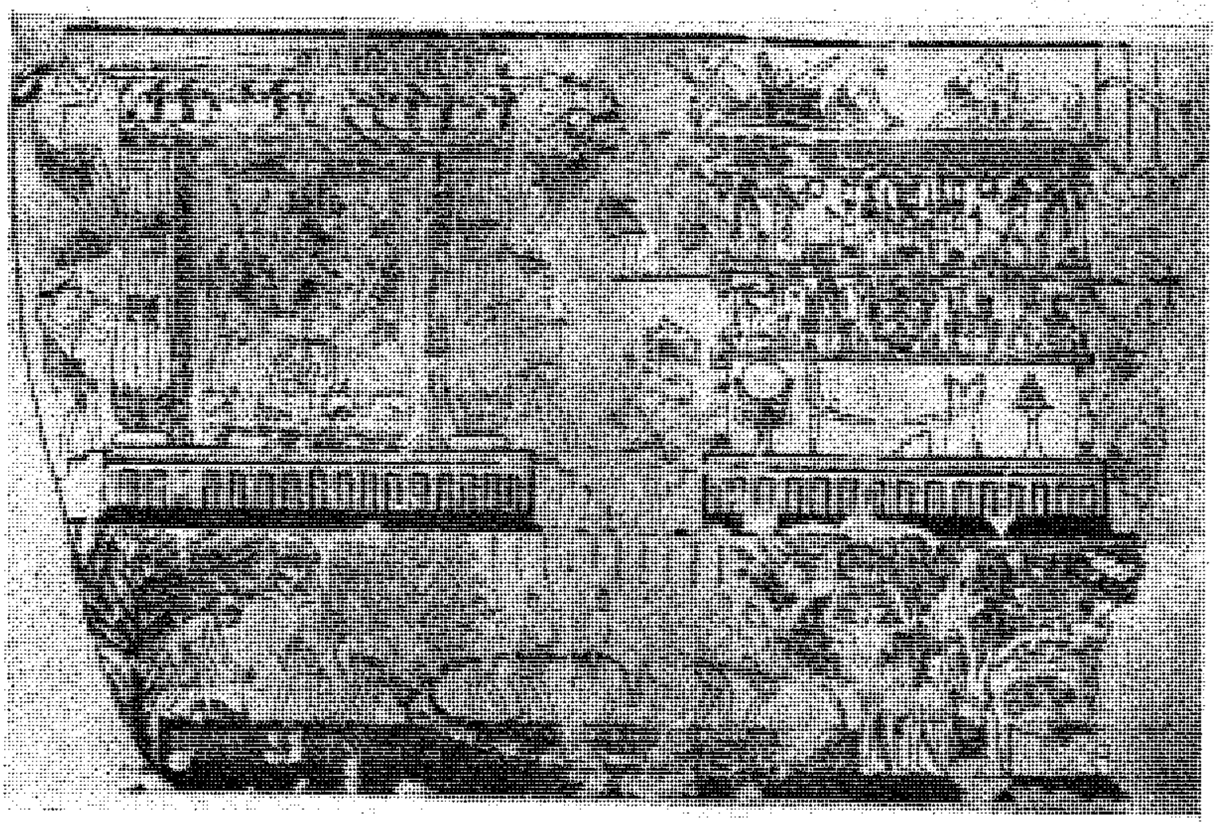

شكل ٤

منه بهدايا ثمينة .. ومن جميل تقاليدهم أن الطبيب كان يقتطع جزءا من آتعابه يخص به المعبد الذى تلقى فيه علومه الطبية .

وأشهر الأطباء فى مصر الفرعونية هو — ولا شك — « امحوتب » (شكل ٥) ومعنى ذلك الاسم : « الذى أتى سالما » . وقد عاش فى عهد الأسرة الثالثة (٣٠٠٠ ق . م .) وقال عنه سير وليام أوزلر « انه أول شخصية طبيب ظهرت فى التاريخ البشرى » . وقد شك المؤرخون أخيرا فى أنه كان طبيبا وبنوا شكهم هذا على أنهم لم يجدوا فى النصوص المعاصرة له أية اشارة الى مزاولته مهنة الطب ، اذ أنه لم يحظ بألقابه كطبيب الا فى النصوص المتأخرة بعد أن مضى عشرون قرنا على

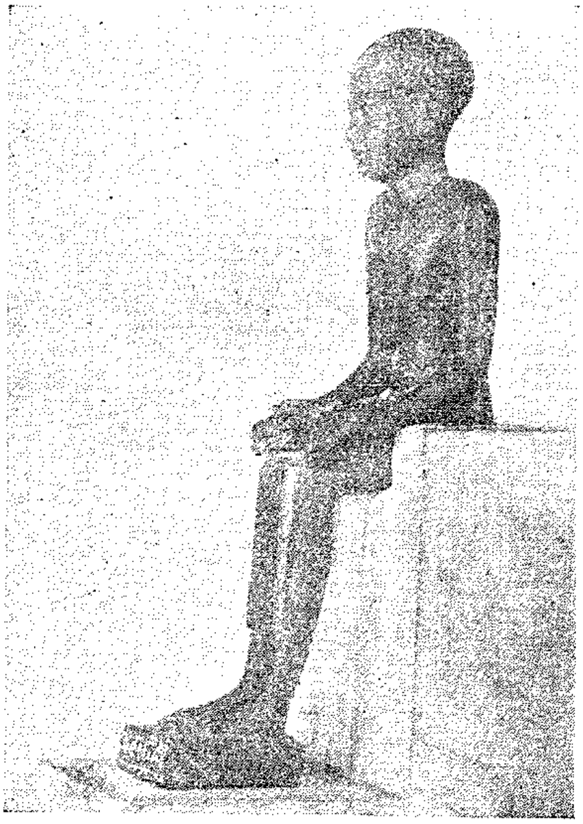

شكل ٥ امحوتب

التاريخ أن أوزيريس تزوج من أخته ايزيس ، وأن نفتيس اقترنت بأخيها سيث . وقد احتفظت الفراعنة بتلك العادة تقليدا للآلهة وحرصا على صفاء سلالتهم .. وقد عاب الاغريق هذه العادة على المصريين زاعمين أنها تتنافى مع القيم البشرية .. والاعتقاد لا يزال سائدا حتى الآن بأن هذا الانحراف يعرض للأمراض الخلقية ، ولكن روفر يقول بعد دراسة مستفيضة انه لا أثر لمثل هذا الانحلال مثلا فى الأسرة الثامنة عشرة وهى التى أنجبت تسعة من أكثر الملوك ، كما لم يلاحظ انحلالا عند البطالمة .

ومع أن تعدد الزوجات كان مباحا ، فان الظروف الاقتصادية كانت تحد منه ، بحيث كانت غالبية المتزوجين من المصريين القدماء يكتفون بزوجة واحدة ، وكان البغاء مؤسسة رسمية أنشئت من أجل غير المتزوجين ، والمسافرين ، والجنود .. أما الدعارة المقدسة كالتى وجدت فى بابل أو الهند ، فلم يعثر فى المعابد الفرعونية على أى أثر يدل عليها .

الختـــان :

يقول هيرودوت : « ان الذين زاولوا الختان منذ أقدم العصور هم المصريون والأشوريون والكولشيديون والأحباش ... أما غيرهم من الشعوب فقد عرفوه عن المصريين »

وكانت عملية الختان تجرى للأولاد غالبا بين السادسة والثانية عشرة من أعمارهم فى المعابد ، ومع ذلك فانها لم تكن فرضا على الشعب كما صارت فيما بعد عند اليهود أو سنّة عند المسلمين — اذ أننا لا نجد أثرا لها فى كثير من النقوش — ومع أنها لم تكن مقصورة على الملوك والكهنة ، الا أنها كانت محتمة على من يقومون بطقوس معينة .

وقد اتخذ بعض المؤرخين من تتابع الولادة والختان مباشرة فى بعض نقوش المعابد الخاصة بولادة وطفولة الأمراء ، دليلا على أن هذه العملية كانت تجرى بعد الولادة بأيام . وقال البعض الآخر ان هذا التمثيل كان رمزيا فحسب اذ أن النقوش الأخرى ، وخاصة تلك التى تتصل بغير الملوك والآلهة ، قد مثلت العملية وهى تجرى على أشخاص لا شك فى أنهم متقدمون فى السن الى حد ما .

وربما كان مفيدا درس نقش شوهد على جدران مقبرة (عنخ ماحور) فى عصر الأسرة السادسة فى سقارة (شكل ٦) ، وهذا النقش مكون من جزءين : ففى الجزء الأيمن منه نرى الجراح — وقد ذكرت قبالته عبارة « الكاهن المختن » — مما يوعز بأن العملية التى يقوم باجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى — نراه وقد أمسك بيده اليمنى بآلة مستطيلة فى وضع عمودى على العضو التناسلى وفى اتجاه طول الجسم ، ويقول : « ان هذا يجعله مقبولا للكحت (أو الدهان) » . أما الجزء

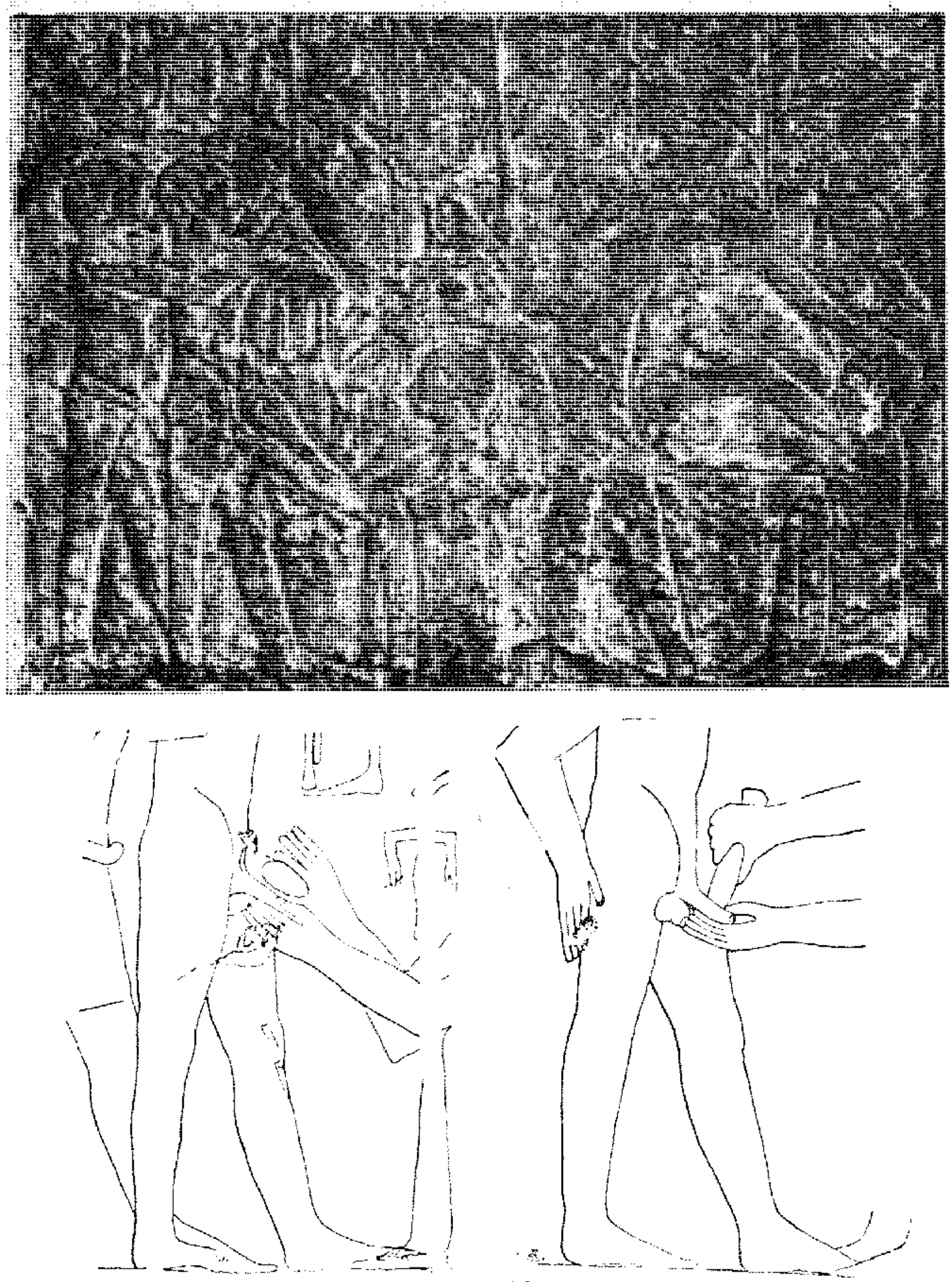

شكل ٦
الرسم السفلي يفسر الرسم الأعلى

الأيسر فيظهر فيه الجراح ممسكا بآلة أو بشيء آخر بيضاوي الشكل يلمس به العضو التناسلي الذي يسنده بيده اليسرى . وفي هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم.. وتلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في قوة وعنف .. ونقرأ قول الطبيب « امسكه كيلا يقع » ، ورد المساعد « سأفعل وفق اشارتك » .. وبدهي أن تكون اللوحة اليمنى لايضاح التحضير أو التخدير واليسرى لابراز العملية نفسها ، الا أن « موريس بيليه » لم يقبل هذا التفسير وقطع بأن الكتابة

الأولى تتعلق بالرسم الثاني والعكس بالعكس .

وهناك نقش آخر لعملية الختان فى معبد كرنك يظهر فيه الجراح وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلى فى مستوى الكمرة — بعد ربط العضو برباط دائرى على قاعدته . ويفتح فتحة (القلفة) بأصابع يده اليسرى . وهذا من غير شك ليتجنب جرح العضو عند القطع ، ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم الأول ، فهى أشبه بمشرط أو سكين مكشوط الحد .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الختان لم يكن يجرى فى الماضى بالشكل المتبع الآن ، أى أنه لم يكن استئصالا كاملا (للقلفة) وانما كان مجرد قطع مستطيل يحدث على ظهرها للاكتفاء بفتحها .

ويروى سترابو أن الختان كان يزاول كذلك بالنسبة للبنات ، ولنا أن نشك فى أقوال هذا المؤرخ ، وليس هناك ما يدل على أنها كانت تتم على الطريقة المتبعة فى النوبة والسودان ، وذلك بالرغم من أن هذه الطريقة تدعى هناك « بالختان الفرعونى » .

وقد حاول الرومان تحريم الختان ولكنهم لم ينجحوا ، لأنه كما قلنا كانت تفرضه بعض الطقوس الدينية .

النظافة العامة :

وكان المصرى يتميز بالنظافة الفائقة ، سواء كان غنيا أم فقيرا — وقد أعجب السياح الاغريقيون بالمظاهر المختلفة لنظافة المصريين . ولم يعرف المصريون الصابون ، وكانوا يستعملون الصودا فى الغسيل .. وكانوا جميعا — رجالا ونساء — يتخلصون مما ينمو على أجسامهم من شعر اما بالحلق واما بالنزع .. أما الكهنة وكبار القوم فكانوا يحلقون شعر رءوسهم ووجوههم ويحلون مكانه شعرا مستعارا ولحى صناعية .

كيف كانت المساكن :

واذا ما انتقلنا الآن الى داخل البيوت وجدنا أنها كانت تهوى « بالملاقف » وأنها كانت مزودة بالمراحيض ، الأمر الذى أثار دهشة هيرودوت فقال : « ان المصريين يختلفون فى عاداتهم عن بقية الشعوب الأخرى .. فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم ، بينما يقضون حاجاتهم داخلها » .. وقد عرفنا شكل مراحيضهم من نماذج مصغرة للبيوت وجدت فى بعض المقابر ، نذكر منها خصوصا مقبرة « روابو » فى سقارة (٣٠٠٠ ق . م .) . وشكل هذه المراحيض (شكل ٧) لا يختلف عما وجد عليه طوال الحضارة المصرية ، فهو مكون من حاجزين كل منهما على شكل مربع منحرف ، قاعدته الى أعلى ، وبينهما وعاء ممتلىء الى نصفه بالرمل ، وكان المرحاض يحتل دائما الجهة الجنوبية الشرقية من البيت .

وفى المملكة الوسطى : لم يعثر على أى أثر للحمامات أو المراحيض فى أول مدينة اكتشفت

شكل ٧

كاملة ، وهى التى بناها سنوسرت الثانى (١٩٠٦ — ١٨٨٧ ق . م .) فى الفيوم على مقربة من اللاهون . الا أن قصة « سنوهى » التى وقعت حوادثها فى عصر سنوسرت الأول تذكر أن هناك غرفا للاستحمام ، كما أن بعض النصوص من الأسرة الثانية عشرة تذكر وظيفة « المشرف على غرف استحمام فرعون » . ولعل من الواضح أن المصرى العادى فى الدولة الوسطى لم يعرف الاستحمام فى مكان مهيأ لذلك فى بيته ، فى حين كان الملوك فحسب هم الذين عرفوا « الحمامات » ، ونعل « سنوهى » وقد كان من أفراد الأسرة المالكة ، استعمل حمام القصر الملكى بعد رجوعه من بلاد آسيا ليغتسل وليظهر بالمظهر المصرى اللائق .

وقد نجح « أخناتون » فى الدولة الحديثة فى تحسين الجهاز الصحى بالبيوت فى المدينة التى أسماها « بأفق قرص الشمس » وهى تل العمارنة ، والفضل فى ذلك يرجع من غير شك الى ما تميز به من حساسية الفنان المرهفة .. فقد اكتشف بورخاردت فى مدينة تل العمارنة هذه أربعة أنواع من المراحيض (شكل ٨) .

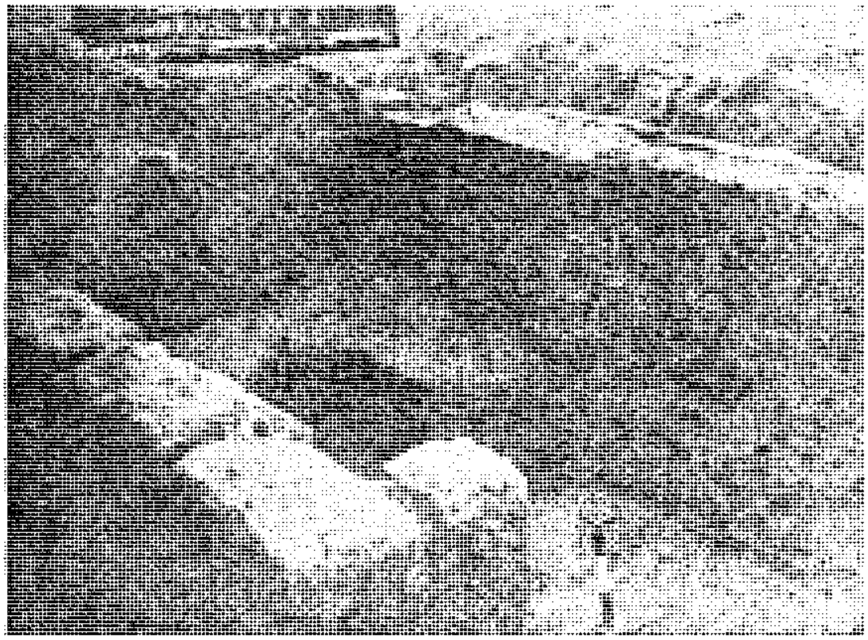

شكل ٨

وهناك نماذج أخرى لها وجدت فى مدينة هابو ، كما وجدت مقاعد متنقلة لقضاء الحاجة (شكل ٩) . وكل هذه الأنواع مزودة بمقاعد مفتوحة من أعلى لتهبط الفضلات من هذه الفتحات فتتلقاها أواني خاصة .

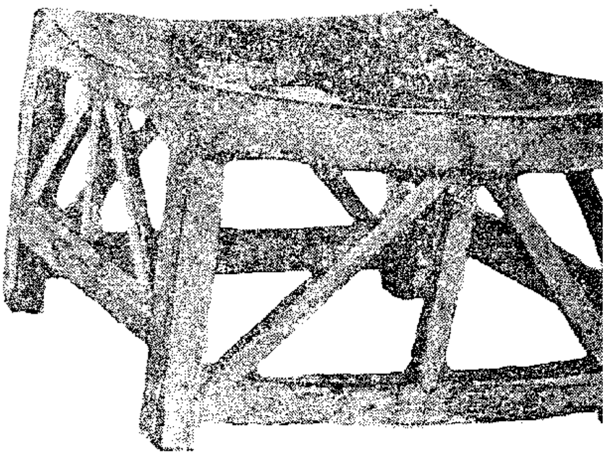

شكل ٩

هذا عن المراحيض . أما الحمامات فقد وجدت منها أمثلة عديدة فى هذا العصر ، ولم يكن المستحم ينغمس فى حوض مملوء بالماء كما كان يفعل الاغريق والرومان ، وانما كان يصب الماء من أعلى فوق رأسه .

وكانت الحمامات مزودة فى أسفلها بخزانات ينساب اليها الماء الملوث ، وكانت الجدران المحيطة بالحمام مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانته .. وهذه الحمامات بلغت ذروة الترف فى عهد رمسيس الثالث ، الذى بنى منزلا على مقربة من معبد مدينة هابو ، ثم هدمه وشيد على أنقاضه منزلا آخر مزودا بعدد كبير من الحمامات ليستخدمها هو « وحريمه » ، وكل هذه الحمامات كانت مكسوة من الداخل بألواح من الحجر الجيرى الأبيض .

وقد كشفت حفريات بورخاردت فى معبد «ساحورع» ثانى فرعون من الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق . م .) فى أبى صير عن أحواض من الحجر المبطن بالمعدن موجودة فى كل حجرة من حجره وكل دهليز من دهاليزه .

وكل حوض له فى أسفله فتحة يسدها غطاء من المعدن مربوط بسلسلة تشبه تمام السدادات والسلاسل المستعملة فى الأحواض الحالية (شكل ١٠) وكانت فتحات الأحواض

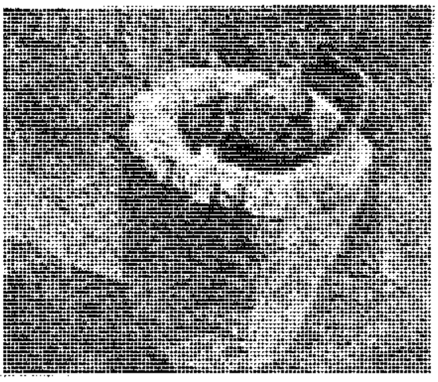

شكل ١٠

متصلة بشبكة من الأنابيب الجوفية ، قدر طولها بأربعمائة متر تنتهى الى الوادى ، وكانت الأنابيب مصنوعة من صفائح النحاس المطروق ، ومطوية على شكل اسطوانى ، مع مراعاة تراكب الأطراف ووضع الشفتين الى أعلى (شكل ١١) . ولكن لم يوجد أثر لتعميم نظام الصرف هذا فيما بعد ،

شكل ١١

فان المياه المطرودة من المساكن كانت تتسرب فى مجرى مشقوق فى وسط الشارع ، كما كانت الحال فى أوروبا الى عهد قريب . وكانت أحيانا تجمع فى أوعية خارج المنازل (مثلا فى تل العمارنة) .

أما فى عهد البطالمة فقد عمم استعمال المقاعد بالمراحيض ، وانتشرت الحمامات العامة المزودة بالتدفئة ، وكان عدد الحمامات العامة فى الاسكندرية ٤٠٠٠ عند فتح العرب ، ولكن حضارة هذا العصر تنتسب الى الاغريق أكثر من انتسابها للفراعنة .

علم الأمراض

قلنا ان الطب الفرعونى يبدو كأنه يحاول التحرر من السحر والتفكير اللاهوتى ليصبح علما تجريبيا ، ولذا فانه يمكن التمييز فى نظرتهم الى المرض بين نوعين منه هما : الأمراض الخارجية والأمراض الداخلية ، وقد دام هذا التقسيم الى عصرنا هذا ، اذ يسمى الفرنسيون الجراحة بالباتولوجيا الخارجية ، والأمراض الباطنية بالباتولجيا الداخلية .

والسر فى تمييزهم هذا هو نظرتهم الى الصحة والمرض عامة . فقد كانوا يعتقدون أن الروح خالدة لا تبلى الا بالقتل ، وأن المرض لا يحدث الا بتأثير عامل قاتل خارجى ، وهذا العامل اما أن يكون ظاهرا كالسلاح والنار .. أو خفيا . ولما كان علما المكروبيولوجيا والكيمياء الحيوية لم ينشئا بعد فقد جعلهم هذا التفكير المبنى على السببية يعزون المرض الخفى الى أرواح شريرة أو الى أعمال سحرية ، أو الى عقاب تفرضه الآلهة ، أو الى ميت أو عدو .. وكثيرا ما كانوا يقرنون اسم المرض بلفظ « عدو » كمخصص له كما يفعل الشعب اليوم عندما يقرن كل لفظة تدل على شىء مكروه بلفظة « عدوك » .

وليس أدل على نظرة قدماء المصريين هذه من رسالة بعث بها مريض الى زوجته بعد وفاتها ، يعتب عليها فيها ، وهى فى حياتها الآخرة ، اصابته بالمرض ، ويذكّرها بما كانت حظت به وهى فى كنفه من الرعاية والعناية اللتين لم تتأثر بازدياد ثروته واتساع سلطانه وكيف أنه أقام لها ما يليق بها من المآتم الفخم ،

ويشير فيها الى أنه كان دائم التفكير فى زوجته هذه كلما غاب عنها .

ولنذكر أن الآلهة ذاتها لم تكن محصنة ضد المرض ، فان ايزيس مثلا شكت من خراج فى الثدى بعد الولادة ، و « رع » عضه ثعبان فى مؤخرة قدمه وشفته ايزيس من العضة ، وحورس أصيب بالدوسنتاريا ..الخ.

أما الموت فلم ينظر اليه المصريون نظرة الاسرائيليين ، أى كعقاب على خطيئة ارتكبها آدم وتقضى بحرمانهم من الحياة الآخرة ، ولكنهم رأوا فى الموت ظاهرة تتبع الحياة حتما ، ولا تختلف عنها من حيث الجوهر ، وانما هى احدى حلقاتها فى عالم آخر ، يقوم فى أثنائها الميت بتأدية كل الأعمال التى كان يقوم بها فى حياته الأولى ، بل قد يأتى نساءه وينجب منهن أطفالا ، كما أنجب أوزريس طفلا من « ايزيس » بعد موته .

ونتج من تقسيمهم الأمراض الى هذين النوعين اتجاهان عكسيان فى العلاج : اتجاه واقعى عقلى فى الجراحة ، مبنى على التجربة والتأمل ، تجسم فى قرطاسة ادوين سميث ، واتجاه فى الأمراض الباطنية يبدو لنا تافها وان كان منطقيا للغاية اذا قبلنا فرضه وهذا الفرض هو ضرورة التخلص من الروح الشريرة التى سكنت المريض . وهذا باشتراك الطبيب مع الساحر وبالطرق التى تستجيب الروح لها .

مثال ذلك أنه روي أن الأميرة بنت رشت أميرة بختان ، عندما مرضت ، طلب والدها من رمسيس الثانى زوج ابنته نفرو — رع أن يرسل اليها عالما ، وبعد فحصها قرر العالم أن جسدها مسكون بعدو يجب محاربته ، وان كان قد قرر عجزه عن القيام بهذه المحاربة ، ونصح بالتوجه الى آخر أكبر منه وهو اله طيبة « خونسو » الذى نقل الى بختان فشفيت الأميرة .

الا أن نشأة التفكير الواقعى أدت فيما بعد الى محاولة تفسير المرض بما كانوا يعرفونه ، أو بما كانوا يحسبون أنهم يعرفونه عن التشريح ووظائف الأعضاء . فاعتبروا مثلا أن المرض يتسبب من الافراط فى التغذية ، وأنه يحدث عند انسداد الشرايين ، أو امتزاج الأخلاط التى تجرى فى الشرايين ، وسنتطرق الى ذلك عند الكلام على الشرايين .

ومع ذلك فان جل طبهم يتسم بالبعد عن التفسيرات والنظريات ، وبالاكتفاء بوصف الأعراض ، حتى انهم بينما كانوا يهتمون بتحديد المآل فى الحالات الجراحية ، قلما عنيوا بالتكهن به فى حالات الأمراض الباطنة ، وكأنها مستعصية على ادراك الذهن البشرى .

الأمراض المعروفة :

ومن الأمراض التى جاء وصفها نوع من الحمى المصحوبة بطفح جلدى ، وقد فسره البعض بأنه الطاعون ، وآخرون بأنه الجدرى ، ومنها نوع من الدود وصف بأنه (ينفرج) وقد يكون الدودة الوحيدة ، ونوع آخر (مستطيل) وقد يكون الأسكارس أو غيره

من الديدان ، وعالجـوه بالخس والشبت والبصل .

ومنها مرض جاء ذكره أكثر من مرة ، ووصفت له عدة وصفات ، وهو مرض مزمن فتاك اسمه (عاع) يحدث هزالا شديدا ، وله علاقة بالديدان ، وخص دائما فى الكتـابة بالذكر ، وقد فسره البعض بأنه البلهارسيا لعلاقته بالديدان (ولنوع الشارة المخصصة له) ولما يحدثه من ضعف شديد .. الا أنه يمكن الاجابة بأنه من المشكوك فيه أن يكون قدماء المصريين عثروا على دودة البلهارسيا فى الوريد البابى ، كما أنه جاءت أوصاف عديدة للتبول الدموى بأسماء أخرى ولم يجىء أى وصف منها باسم العاع ، ولذا فقد رأى آخرون أن مرض العـاع هو مرض الانكلستوما لما يسببه من هزال شديد قد يفتك بالمريض ، وأن استعمال المخصص يدل على ما يشكو الصبيان المصابون به من توقف فى النمو الجنسى ، والبالغون من زوال القوى الحيوية .. والمسألة لا تزال مطروحة للبحث .. وفى قرطاسة ابرز جاء وصف جميل للذبحة الصدرية : « اذا فحصت مريضا بالمعدة يشكو آلاما فى ذراعه وصدره وناحية من معدته .. فقل بصدده : هذا شيء دخل من فمه والموت يهدده » ، وقد وصفوا ادرار البول وقد يكون البول السكرى (كلمة ديابيط اغريقية ابتكرها دمتروس سـنة ٢٧٠ ميلادية) . وهناك أوصاف عدة لشلل الجسم والصمت نتيجة حدوث جروح بالرأس والجمجمة .

أما أمراض المعدة فجاءت لها أوصاف عديدة ، شملت أمراضا مختلفة لأعضاء التجويف البطنى . ولا شك فى أن مرض الدرن كان منتشرا ، فقد وصلت الينا صور وتماثيل عديدة لمرض بوت ، وقد عزا البعض موت توت عنخ آمون مبكرا الى اصابته بالدرن الرئوى ، الا أن ذلك لم يثبت بالدليل القاطع .

ومجموع ما وصفوه يربو على ٢٥٠ مرضا باطنيا وصف وصفا لا يخلو من الشاعرية فى التعبير ، مثـل وصفهم الرجل المصاب بالضعف الشديد بالنسمة العابرة والدمل بالفاكهة الذابلة .. الا أن هناك ألفاظا عـدة لم يتعرف حتى الآن على معناها الحقيقى .

وفيما يخص الأمراض التناسلية هناك عدة أوصاف لمرض يشبه السيلان مشابهة تامة . ولكن لم يوجد للزهرى أثر اذا استثنينا حالة اكتشفها زكى سعد فى حلوان ، ودرسها محمد كامل حسين بالأشعة فوجد عظمة الساق مصابة بالتهاب فى غشاء العظم يشبه ما يسببه الزهرى .. الا أن وجود هـذا المرض فى العالم القديم لم يقم عليه برهان حتى اليوم . وقد اكتشف (روفر) فى أنسجة بعض موميات الأسرة العشرين بعد تحضيرها بطرق خاصة بويضات البلهارسيا وتصلب الشرايين .

وقد درس الدكتور « محمد كامـل حسين » مجموعة العظام الموجودة الآن فى

متحف التشريح بكلية طب جامعة القاهرة ، ورجح أن الأمراض الروماتزمية لابد أنها كانت منتشرة انتشارا لا نعرفه اليوم .. والكثير من تلك العظام مصاب بتكلس فى أربطة المفاصل مثل ما يحدث فى مرض بكترف Bechterew ، وهذا استنتاج روفر نفسه كما أنه وجد exostoses بالجمجمة ، أى زيادات موضعية فى العظم ، تشبه ما يحدث حول أورام الأم الجافة .

وهناك رسمان دقيقان لقدم قفداء نتيجة اصابة بشلل الأطفال فى متحف كارلزبرج بكوبنهاجن ، والآخر فى مقبرة منا فى طيبة ، نجد مثلها فى مومياء وصفها اليوت سميث (شكل ١٢) .

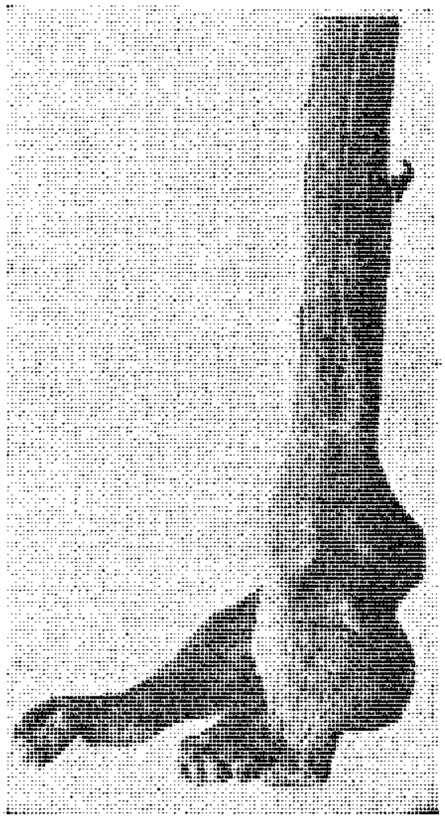

شكل ١٢ قدم قفداء

أما البدانة فكان ينظر اليها بشىء من الازدراء . ومع أنها كانت منتشرة فى الطبقات العليا ، فان أصحاب المقابر فضلوا أن يمثلوا مفتولى العضلات ، على عكس حالتهم الحقيقية ، الا فى بعض الحالات النادرة . وقد جمعنا فى مقال آخر بعض أمثلة لهذا تدل على معرفتهم لمختلف أنواع البدانة ، وعلى حدة ملاحظتهم وواقعية رسمهم .

وعلى عكس ذلك فقد ظهر الهزال والجوع بأبشع مظاهره ، فى تصوير للمجاعة ظهر فيه رجل يأكل البراغيث التى كانت تتعيش على جسمه النحيل .

وقد ادعى جرينوالد أن الملكة « كليوباطرة » كانت مصابة بتضخم الغدة الدرقية وبنى هذا الادعاء على رسم لها بمعبد دندرة .. الا أنى أعتقد .. بعد دراسة الأصل بدندرة ، أن نتوء الرقبة فى هذا النحت مظهر كاذب ناتج عن طريقة النحت البارز فى استدارة ronde bosse الشائعة فى عهد البطالمة ، كما هو ظاهر من ارتفاع حوافى الابطين والكتفين والخدين أيضا فى هذه القطعة نفسها .

التشريح وعلم وظائف الأعضاء

ان معلومات المصريين القدماء عن التشريح بالرغم من خيال بعض المؤرخين الذين بالغوا فى ذكرها ، لم تتعد فى الواقع ما يتطلبه علاج الكسور والجروح السطحية التى تحدث فى الحرب والصيد .. وكذلك الطقوس المتعلقة

بالتحنيط واحتياجات الرسامين والنقاشين الذين كانوا يخضعون فى تمثيلهم الجسم البشرى لقوانين دقيقة ، مبنية على المامهم بالتشريح السطحى له ، وعلى فكرتهم عن الجمال ، ولذا فاننا نجد أن تلك النسب تختلف باختلاف عصور حضارتهم ، كما هو واضح من المربعات أو التكعيبات التى كان الرسامون يستعملونها فى فنهم .

وربما ظن البعض أن ممارسة التحنيط قرنا بعد قرن قد غذى علم التشريح ، ولكن الحقيقة أن الذين زاولوا هذه المهنة كانوا فى مرتبة الصناع . وكانوا على حد قول الاغريق من أحط الناس مقاما ، والعلة فى ذلك هى أن للجثة قدسية حظر الدين المساس بها وامتهانها — ولذا فانهم كانوا يعتبرون فئة المحنطين الذين يفتحون الجثة من أتباع (سيت) الممقوت الذى عبث بجثة أخيه ومثل بها شر تمثيل بأن مزقها اربا ثم ألقى بها فى مواضع متفرقة .

الا أن ممارسة التحنيط فى مصر الفرعونية قد بصرت المصريين بطبيعة وشكل محتويات الجسم الداخلية ، فتفوقوا فى هذا الميدان على الشعوب الأخرى التى كانت تحرق الجثث أو تدفنها .. ثم انها عودت العقول على هضم الفكرة التى مؤداها ان فتح الجثة لا يعد تمثيلا بها ، وأتاحت لأطباء العصر البطلمى تشريحها تشريحا منظما لا تخبط فيه ، بينما كان التشريح محرما على كافة شعوب العالم الأخرى .

ومع ذلك فان الكثير مما عرفه المصريون عن أعضاء الجسم مستمد من تشريح الحيوانات ، فان رمز الأسنان الذى استعمل فى الكتابة الهيروغليفية مستمد من ناب الفيل ، وكتابة الرحم كذلك هى صورة رحم البقر ، كما أن اسم الرحم « حميت » هو جذر يوجد فى اسم أنثى الانسان والحيوان على السواء ، وكان يسمى أيضا mwt rmt أى أم الرجال وهذا يقارن الكلمة اللاتينية للرحم وهى matrix ، أى الأم والكلمة العربية (أم الولد) . ولم يذكر بعض الأعضاء المهمة مثل الكلى بتاتا .

أما الغدة الدرقية فان المرجع الوحيد الذى قد يكون ذكرها هو قرطاسة سميث فى الحالة رقم ٣٤ ، وهى حالة نقل طرف الترقوة الأنسى ، فقد جاء فى وصفها أن الترقوة مربوطة أعلى القص (النصاب) حيث تصل الى الزور الذى يوجد فوقه . ‏ḥ. nnpjt وهذه الكلمة مركبة من لفظة (نبويت) (الترقوة) ومن كلمة (حت) المستعملة قبل اسم كل جزء من أجزاء الذبيحة التى تقدم قرابين للآلهة مثل الكبد والطحال .. الخ .. ولذا فان ابيل استنتج أن هذه الكلمة تصف قطعة من اللحم ، توجد فى مقدمة الرقبة وتعتبر « لقمة طيبة » فتقدم للآلهة ، وأن هذه القطعة ما هى الا الغدة الدرقية .

ومن علامات التعثر الذى كان يكتنف علم التشريح أن فى علم العظام مثلا لم يكن

هناك اسم للعظمة ذاتها ، وانما كان الاسم يطلق على الطرف كله بما يحتويه من عظام وعضلات وأعصاب وشرايين .. الخ .

عن الشرايين « ميتو » والنبض والقلب :

ولم يميزوا فى تسميتهم بين كل من الشريان والوريد والوتر والعصب ، فقد أطلقوا عليها جميعا اسم « ميتو » .

وكانوا يعرفون النبض ويعبرون عنه بقولهم « ان القلب يتكلم عن طريق الشرايين » وان كانوا لم يفطنوا الى وجود الدورة الدموية .. وكانوا يعرفون مواقع النبض المختلفة فى الجسم ، وكيفية جسه . وكانوا يربطونه بالمرض ، وقد يكونون تمكنوا من عده ، وقد قيل ان أول من استطاع عد النبض هو (هيروفيلوس) الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد واستخدم فى قياسه ساعة مائية ، الا أن نماذج من تلك الساعة وجدت منذ تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) ومنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة) . وهناك نبذة فى قرطاسة سميث ترجمها برستد بأنها تعنى عد النبض ، وهى تبدأ بالعبارة الآتية : « هنا يبدأ سر « الطبيب » . ولذا فانها لمصادفة غريبة أن يكون هيروفيلوس عاش ودرّس فى الاسكندرية بضعة قرون بعد أن أعاد أوجاحورسنت بناء مدرسة سايس ، وقد تكون معرفة عد النبض أحد الأسرار التى أخفاها كهنة المصريين عن الاغريق .

وكانت للشرايين (ميتو) أهمية كبيرة فى علم وظائف الأعضاء ، وقد احتوت قرطاسة ابرز على كتابين عنها جاء فى أحدهما أن عددها ٤٦ ، وفى الآخر أنها ٢٢ — كما أن قرطاسة برلين تحتوى على أجزاء من هذين الكتابين .

ولنضرب مثلا للحالة التى كان عليها علم التشريح ، بأن نذكر ما ورد فى هذا الشأن فى قرطاسة ابرز .. تقول تلك القرطاسة ان فى مركز الرأس أربعة شرايين (ميتو) تتفرع الى مؤخر الرأس ، وأن الروح تدخل عن طريق الأنف وتتجه الى القلب والرئتين الذين يوزعونها على تجويف البطن ، أما فتحتا الأنف فهما شريانان يوصلان الى العين ، وهناك أربعة شرايين تنقل الروح والماء الى الكبد ، حيث تتكون الأخلاط التى ينقلها الدم ، وهناك شريانان متصلان بالأذن اليمنى تدخل منها الحياة وآخران متصلان بالأذن اليسرى يتسلل عن طريقهما الموت .

وكانوا يربطون فى القراطيس السحرية بين كل عضو أو طرف وبين اله معين وفلك معين ، كما هو ظاهر من بعض التعاويذ : « رأسك رع ، ذراعك حوروس ، سرتك نجم الصباح ، الخ .. » ويعتقدون أن كلا منها ذو حياة خاصة مستقلة وأن له روحه وأهواءه وحياته الخاصة .

وكانوا يعتقدون أيضا أن الميتو مليئة بسائل وهواء وفضلات ، وأنها قنوات تنقل

الدموع والبول والسائل المنوى ومخاض الأنف .. الخ الى أجزاء الجسم التى تتجه اليها ، وتتيجة اعتقادهم أنها هى الموزعة لكل الأخلاط والسوائل من القلب الى مختلف الأعضاء ، كان القلب يعتبر المحرك المركزى لكل نشاط فى الجسم . فاذا اختل الاتصال بين القلب والشرايين أو اذا تسرب الى هذه الأخيرة افراز غير عادى ، سبب ذلك المرض ، ومن هنا كانوا يعالجون العضو المسئول عن ذلك الافراز . فاذا ظنوا مثلا أن جزءا من البراز تسلل الى الشرايين عالجوا الشرج .. وهكذا .

واذا كانت هذه المعلومات تنم عن خيال خصيب — فانها تحتوى مع ذلك — على مبادىء التفسير العقلى للجسم ، ووظائفه ، وأمراضه ، وعلى مبادىء التجرد من التفكير اللاهوتى .

فن التشخيص :

أما طرق فحص المريض فكانت تعتمد على الخبرة ، ودقة الملاحظة ، وكان هذا الفحص يبدأ عادة باستجواب المريض استجوابا دقيقا ، ثم بتفحصه فحصا عينيا شاملا ، يبدأ بالوجه فيلاحظ لونه وافرازات أنفه وجفناه وعيناه .. الخ ثم تشم روائح الجسم من عرق ونفس ، ثم يأتى فحص البطن ، فالأعضاء الأخرى (أوذيما ، رعشة ، دوالى ، براز ، عرق ، لعاب .. الخ) .. ويتبع الشم الجس والطرق وتقدير حرارة الجسم وفحص البراز والبول .

ففى الجس وصفوا كسر الجمجمة بالنحاس المتجعد تحت تأثير الحرارة ، وورما ينبض تحت اليد بيافوخ الطفل غير الملتئم ، وقسموا الأورام الى المتموجة وغيرها (انظر باب الأورام) وميزوا بين ارتفاع الحرارة الموضعى وارتفاعها العام .

أما عن الطَرْق فقد وردت فى قرطاسة ابرز هذه العبارة : « ضع أصبعك عليها واطرقه » .

ثم كانت تجىء الاختبارات الوظيفية مثلا :

١ — قل للمريض : « انظر الى اليمين ثم الى اليسار والى أعلى والى أسفل ، فاذا لم يستطع المريض ذلك فيشخص نقل فى فقرات الرقبة » .

٢ — أو « ارفع رأسك افتح فمك » . وذلك لفحص الفك .

٣ — أو « ابسط ساقيك ثم اثنهما وجر قدمك » ، (وذلك فى كسر بالعمود الفقرى) .

ولم يفت المؤلفين فى الطب وصف سير المرض وأهمية ملاحظة أطواره فى التشخيص والتكهن ، فقد جاء فى قرطاسة سميث فى وصف مرض قد يكون التتانوس أو كما قال الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين الالتهاب السحائى ما يأتى :

ثانى فحص :

« اذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات .. واذا وجدت وجه المريض وقد غطاه العرق وجمدت عروق رقبته وأسنانه

وازرق وجهه وانقبض فمه والتوى حاجباه وبدا وكأنه يبكى فقل : هذا مرض لا أقدر له على شيء ..

الفحص الثالث :

ولكنك اذا لاحظت أن المريض شاحب الوجه ، وأنه بدت عليه علامات الاسترخاء ، فضع فى فمه أنبوبة ملفوف حولها قماش وعالجه وهو جالس حتى يصل الى النقطة الحاسمة من مرضه crisis .

ولم يكتف الأطباء بوصف أعراض المرض بل ذيلوا تشخيصهم بما يتوقعونه من نتائج مثل : « ألم فى الذراعين والصدر من ناحية القلب ، انه مهدد بالموت » وهذا الوصف يلائم وصف الذبحة الصدرية ..

على أنهم لم يذهبوا الى أبعد من ذكر الأعراض لافتقارهم الى علوم أخرى تعين على ذلك ، ولبعدهم عن التخمين التعقلى ، ومن هنا كانوا يذكرون العرض على أنه المرض نفسه ، مثال ذلك أن يقال : « دم فى البول » .. الخ .

الجراحة

ان أغلب معلوماتنا عن الجراحة مستقاة من قرطاسة أدوين سميث .. ولم يعثر حتى الآن على وثائق تصف عمليات الجراحة ، سوى بعض النقوش الموجودة على الجدران . ويتصور كاتب هذه السطور — وهذا رأى شخصى — أن تلك النقوش ربما كانت تستعمل كدروس تصويرية ، لا يطلع عليها فى سر السراديب سوى التلاميذ المخلصين .

ومن تلك النقوش نقشان فى مقبرة (عنخ ماحور) بسقارة قد يبين أحدهما جراحة فى اليد والآخر جراحة فى القدم ، ويبرز كل من النقشين مريضا ممسكا ذراعه بيد منقبضة .. وقد جاءت عبارة فى أسفل كل من اللوحتين ، الأولى : « اتنه واتركنى وشأنى (سيبنى فى حالى) ».. والأخرى : « لا تسبب لى كل هذا الألم .. » وتلك المقبرة هى المقبرة نفسها التى نقشت على جدرانها عملية الختان (انظر الختان) .

وهناك نقشان درسهما فيكتنبيف ثم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين (شكل ١٣) وقال الأول عنهما : انهما يمثلان عملية فتح القصبة الهوائية (تراكيوتومى) ، وقد بين الدكتور كامل حسين أن المشرط المستعمل وهو بشكل يسمح بتغيير اتجاه القطع كما هو واجب فى تلك العملية ، وان وضع المريض جالسا يدل على أن العملية تجرى للأحياء ، لا للموتى أثناء التحنيط ، الا أن أغلبية علماء الآثار يعتقدون أن مثل تلك النقوش تمثل طقس ذبح الأسرى فى خلال حفلات اليوبيل الملكى ، وهو طقس معروف اجراؤه ، كما أن رسم الشخص الذى

واما عملية التربنة فيجوز الاعتقاد بأنها كانت تجرى حتى فى العصور السابقة للتاريخ ، والغالب أن اجراءها كان فى أول أمرها متصلا بالسحر ، وأن الغرض منه كان اخراج الأرواح التى استحوذت على ذهن المريض ، وقد ذكرت قرطاسة ادوين سميث ضرورة رفع قطع الجمجمة « المنخفضة » فى حالات الكسور المنخفضة دون التعرض الى التربنة . الا أن هناك بعض الجماجم التى تحمل ثقوبا تشبه الثقوب التى تنتج من التربنة (شكل ١٥) .

وقد وصل الينا على جدار معبد كوم أمبو نقش جميل لعدة آلات قيل انها جراحية (شكل ١٦) والمتاحف تزخر بآلات يظن انها كانت تستعمل فى الجراحة ، منها المخالب (شكل ١٧) والمشارط والابر . الا أنه لا يمكن تحديد استعمال أى آلة من الآلات الموجودة حاليا بالضبط ، أو التأكد

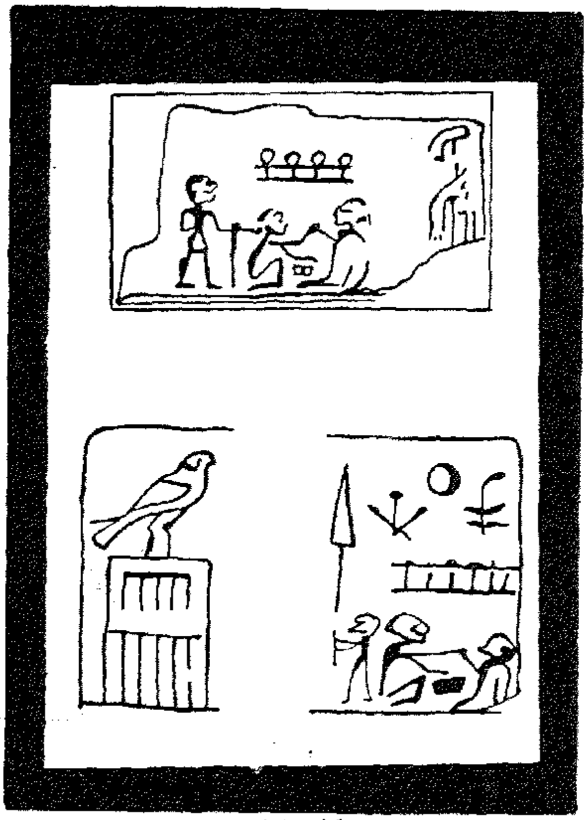

شكل ١٣

تفتح قصبته هو الرسم المخصص للفظة (عدو) فى الكتابة الهيروغليفية (شكل ١٤) .

شكل ١٤

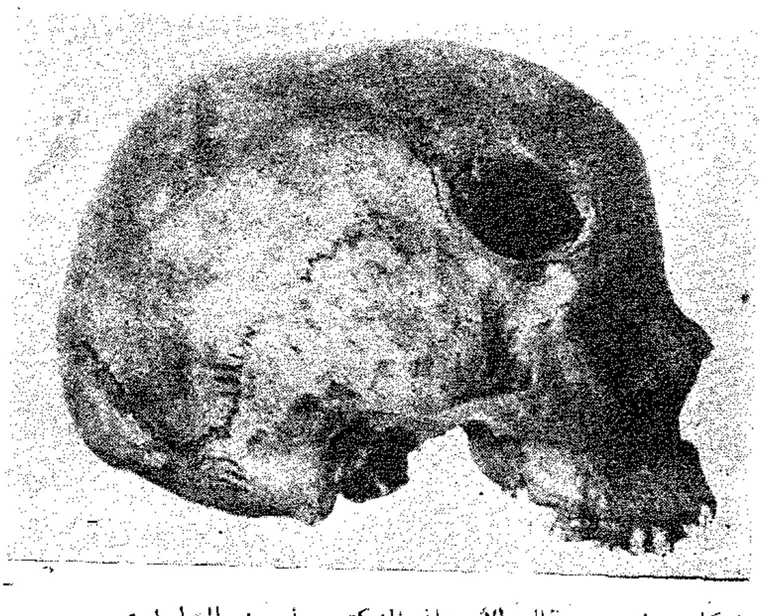

شكل ١٥ من مقال الأستاذ الدكتور أحمد البطراوى .

من أنها كانت حقيقة مستعملة للجراحة الا اذا وجدت عليها نقوش تدل على استعمالها ، أو اذا كشف عنها فى مقبرة طبيب ، وهـــذا لم يحدث الا فى حالة الآلات التى وجدت فى قبر الطبيب (عنخ رع) (شكل ١٨ و ١٩) .

الجـــروح :

كانت تعالج الجروح النظيفة بالخيـاطة والأربطة اللصاقة وباللحم الطرى أول يوم ، ثم بالأعشاب القابضة والعسل . وربما كان الغرض من اللحم ايقاف النزف ، أما العسل فانه محلول مركز يستدر المصل وما يحويه من العناصر الشافية فى الجروح .

الكسور والخلوع :

وجدت آثار عدة للكسور فى الجثث ، هذا لأن العظام لا تتحلل ، وقد بدأ دراستها (روفر) وأنشأ لها علـم الباليوباثولوجيا (علم أمراض القدامى) ، وأعقبه كامل حسين فى هذه الدراسة . وقد ساعد عليها اكتشاف مقبرة فى طيبة مملوءة بجثث مصابة ، والغالب أنها كانت مدفنا لقتلى معركة هائلة . وربما كان أبشع تلك الكسور ما أصاب جمجمة صقننرع ، أول من نادى بالجهـاد ضـــد الهيكسوس ، من الكســور والسهام التى أودت به فى الميدان .

ولقد كانت حالات الكسر فى عظمة الفخذ كثيرة ودل فحص الهياكل على أنهــا كانت تشفى تاركة تضخما حول محل الالتئام وقصرا فى طول العضو ، أما كسور العضد فكانت

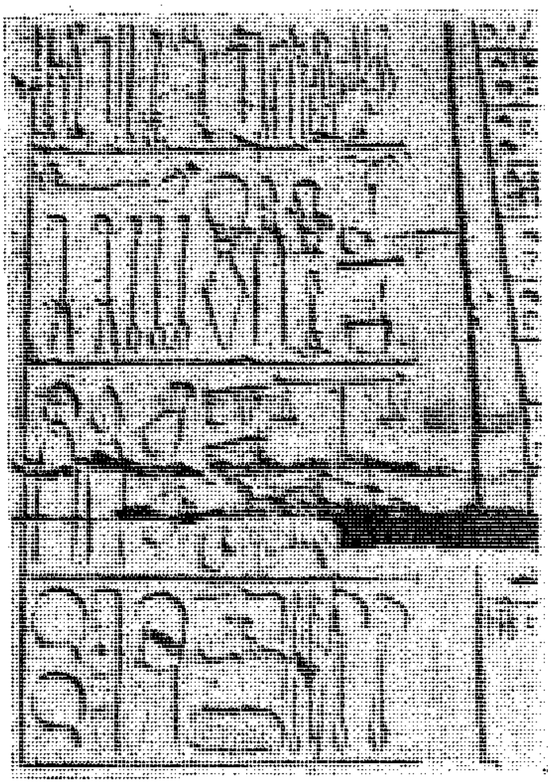

شكل ١٦

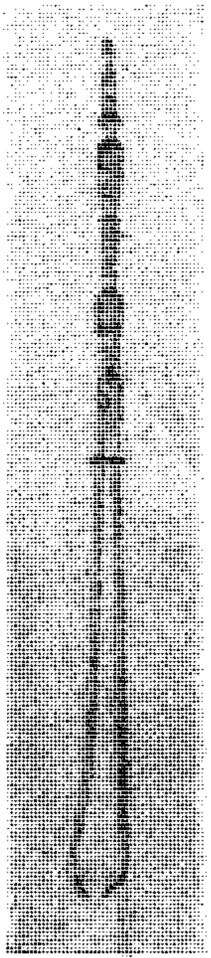

شكل ١٧

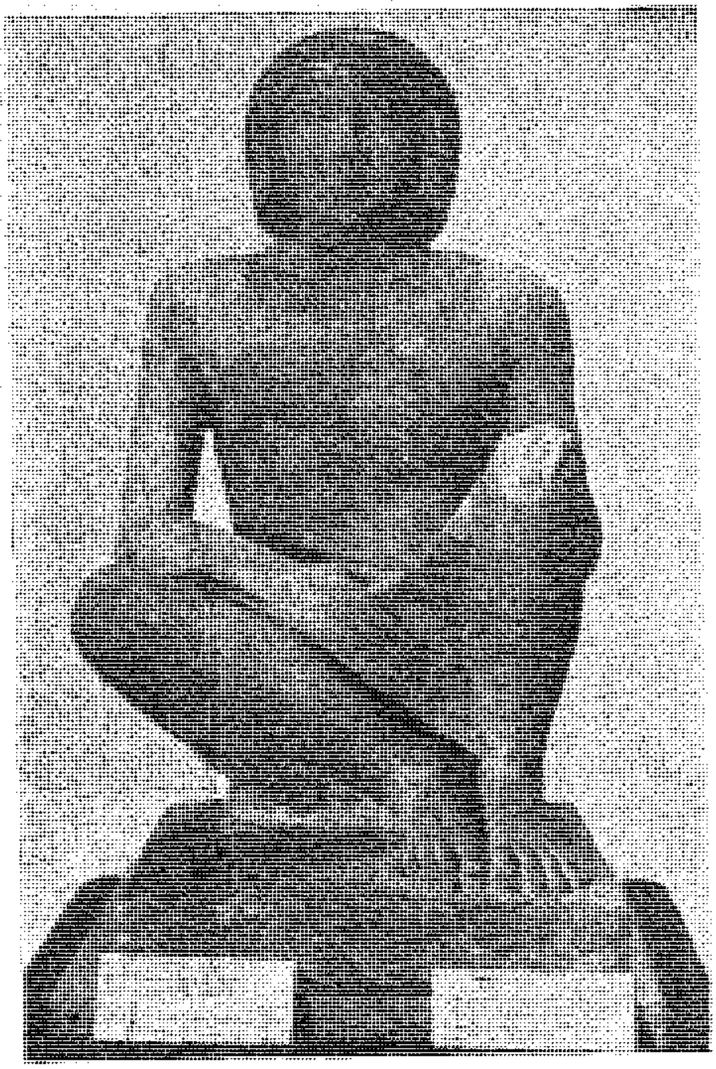

شكل ١٨ ــ الطبيب « نى عنخ رع »

شكل ١٩ ــ آلات الطبيب « نى عنخ رع »

نتائجها أحسن من جهة استقامة العضو ووظيفته ، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة على طرف الكسر . وقد وجدت حالات عديدة لكسر الزند وحده والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (اليوت سميث) وكانت تلك الكسور البسيطة تشفى بسهولة .

وقد عرف مؤلف قرطاسة سميث أهمية قرقرة العظام تحت اليد فى تشخيص الكسور وفرق بينها وبين الجزع ، الذى فسره بأن الأربطة تصاب دون أن يتغير وضع العظام . وشبه كسر الجمجمة أحيانا باناء من الفخار مثقوب ، كما انه عرف فى التكهن عن مآل الحالة قيمة جس الرأس ، وسوء مآل تلك الحالات التى لا يشعر فيها بنبض بالمخ ، أو التى يحس فيها العظم منخفضا داخل المخ ، أو التى يلاحظ فيها تصلب الرقبة والنزيف تحت الملتحمة والنزيف من المنخرين ومن الأذن .. كما وصف كسر العمود الفقرى وما يتبعه من شلل رباعى وتبول لا ارادى ، وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعى ، وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة فقط ، والأمر الذى يدل على اجرائه الصفة التشريحية لتلك الحالات انه يقول فى وصف تلك الكسور ان الفقرة تغور فى الفقرة التى تليها كما تغوص القدم فى أرض منزرعة .

ولقد عثر على كثير من الجبائر فى المقابر (شكل ٢٠) وكانت مكونة عادة من قطع من

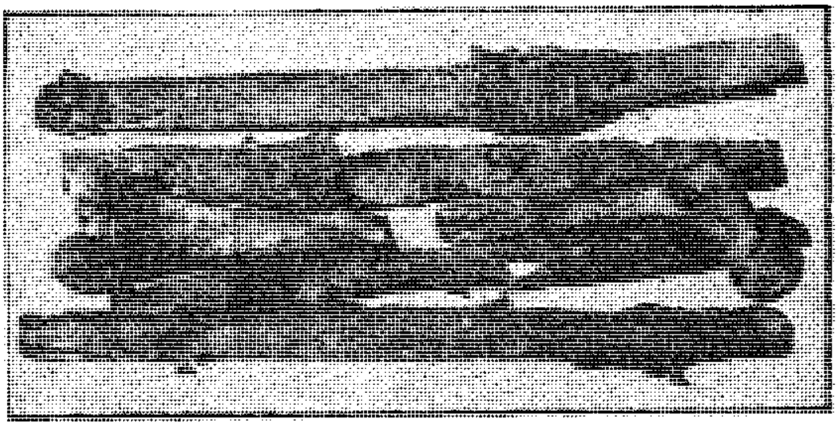

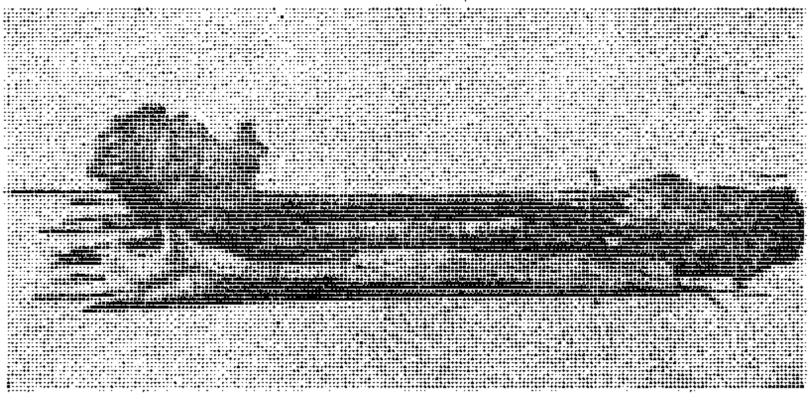

شكل ٢٠

الخشب أو القشرة أو الغاب مبطنة بالتيل . وكان وضعها يراعى فيه أن تشمل المفصلين أعلى وأسفل الكسر ، وكان العضو المجبور يحاط بها كالأسطوانة . ومعظم الكسور المفتوحة التى كشف عنها فى الجثث لم يلاحظ فيها أى تغيير حيوى فى العظام ، مما يدل على حدوث الوفاة بمجرد وقوع الحادث .. ولم يعرفوا مزايا الشد التى فطن اليها الاغريق بعدهم .

الا انهم كانوا يردون الخلوع بمهارة ، ولقد مثلت عملية رد كتف مخلوع فى صورة مصنع ايبى المهندس المعمارى (شكل ٣) ووردت التعليمات الآتية بقرطاسة ادوين سميث ، وهى تتعلق بكسر فى الترقوة .

« اذا تفحصت رجلا مصابا بكسر فى الترقوة ، ووجدت بها قصرا فقل : هذا مرض سأعالجه ، والقه على ظهره وضع بين اللوحين شيئا ملفوفا حتى يبتعد جزءا ترقوته ويرجع الكسر الى موضعه . وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الأنسى من ذراعه » .

واذا تأملنا فى هذه العبارات وجدنا أنها تحتوى على وصف دقيق لطريقة علاج المرض قال عنها الاخصائى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ان الطب الحديث لم يجد حتى الآن علاجا خيرا من هذا ، بل ان هذا العلاج يرمى الى مثل عليا لا داعى عمليا للبحث عنها .

ولا تنقص وصف رد خلع الفك الدقة والمهارة نفسهما ، اذ أن الطريقتين المستعملتين هما اللتان ما نزال نستعملهما اليوم .

أما كسر الأنف فكان يعالج بادخال لفائف صغيرة من الكتان داخل المنخارين لحفظ شكله .

الحروق :

استقينا معلوماتنا عنهـا من قرطاستى لندن وابرز . وكانت تعالج بالعسل والزيوت والمواد الدهنية التى كانت توضع على شكل لصق .

الاورام :

تحوى قرطاسة ابرز وصفا دقيقا للأورام الدهنية والفتق والتمدد الشريانى . وقد أوصت القراطيس عند فحص الأورام بجسمها لمعرفة ما اذا كانت تتموج . فاذا كانت متموجة وجب اعتبارها سائلة أو دهنية ومعالجتها بالمشرط أو بالكى ، وأضافت قرطاسة ابرس « ومنها ما هى أبشع وهى التى تظهر البثرات ويتلون الجلد وترتسم الرسومات على سطحها ، وتحدث آلاما شديدة » ، وقالت عن هذا الورم « انه ورم الاله خونسو ولا تفعل له شيئا » وهذا وصف يتفق اما مع الجمرة الخبيثة أو مع السرطان .

الولادة :

لم تكن المصريات تضقن بالحمل أو تنفرن منه .. ومع أنه وجدت وصفات عديدة للحيلولة دونه أو لاحداث الاجهاض الا أنهن كن يلذن بالآلهة مبتهلات أن تساعدهن على الانجاب . ويتضح ذلك من كتابات دونت على كثير من التماثيل المقدسة .

وكانت هناك طرق متعددة للتأكد من خصب المرأة أو عقمها ، ومعظمها مبنى على فكرة وجود اتصال فى المـــرأة الخصب بين المهبل والجهاز الهضمى .. وبعض هذه الطرق قد ورد فى قراطيس برلـــين وكاهـــون وكارلزبرج ، منها مثلا وضع « لبوس » من الثوم فى المهبل ثم ملاحظة رائحته فى الفم . وقد ورث أبقراط وصفة لبوس الثوم هــذه عن المصريين ، ثم أخـــذها عنه العـــرب والأوربيون فى العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر . ويبدو أن هذه الطريقة ليست خيالية ، اذ أن المادة العطرية فى الثوم قد تمر من البوق الى التجويف البريتونى اذا كان البوق سالكا ، ثم منه الى الرئتين فالنفس ، ونبهنى زميلى الأستاذ الدكتور أحمد عمار الى أن السيدات اللاتى يحقن بمادة الليبيودول فى الرحم لمعرفة حالة البوقين يشعرن بطعمه فى الفم اذا كانا سالكين ، وقد أوصى (سبيك) أخيرا بحقن مادة الفنول فثالين فى الرحم ثم البحث عنه فى البول للغرض ذاته .. أما الطرق الأخرى فانها تبدو غريبة .. ومنها تبخـــير مهبلى بروث فرس البحر .. فاذا طردت المرأة غازات من الخلف دل ذلك على أنها ستحمل ، أما اذا تقيأت فلا أمل فى حملها .

ولقد كان لدى المصريين القدماء طـرق عديدة لتشخيص الحمل ولمعرفة نوع الجنين . وهذه الطرق بعضها أشبه ما يكون بالسحر ، والبعض الآخر قد يكون له أساس علمى . وكل تفكيرهم فى هذا المضمار يبدو مؤسسا على فكرة واحدة ، هى أن الجسم الذى يضم جنينا ذكرا لابد وأن يكون مختلفا عن الجسم الذى يحمل جنينا أنثى . وكان الأطبـــاء يوصون فى تشخيصهم للحمل بوضـع بول المرأة الحبلى على مقدار من القمح وآخـر من الشعير ، فان نبت القمح كان الجنـين ذكرا وان نبت الشـعير كان الجنين أنثى ، أما ان لم ينبت أحد من النوعين كان ذلك دليلا على عدم الحمل .. كما كانوا يضعون البول على مواد مختلفة ويشخصون الحمل اذا لم تحدث عفونة ولم تظهر ديدان .

وكان يوجد فى معبد أرمنت نقش على جدار أحد المعابد يرجع الى عهـد البطالمة (شكل ٢١) ، الا أن أحجار هـــذا المعبد

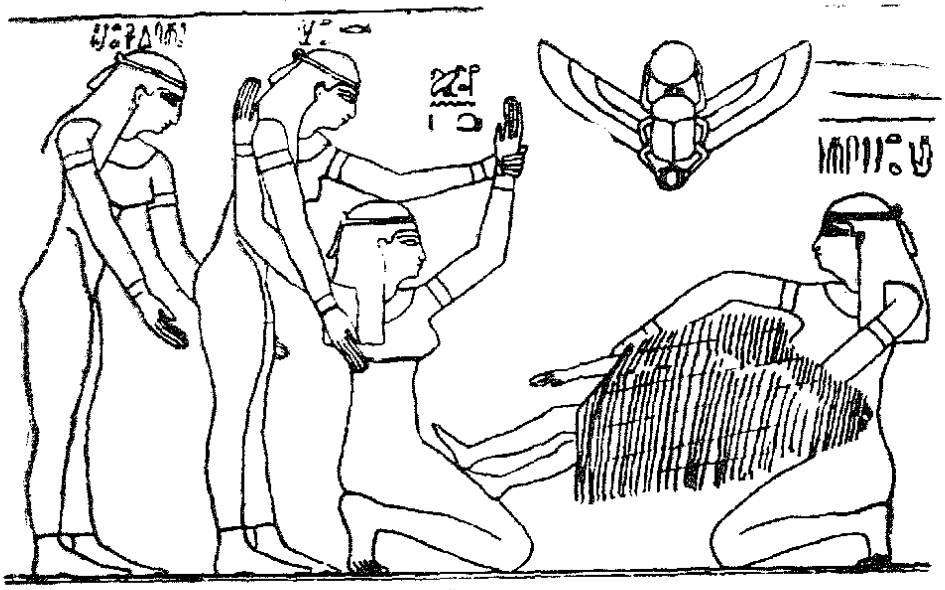

شكل ٢١ ولادة كليوباترة

استعملت فى بنـاء مصنع السـكر فلم يبق من هـذا النقش الا صورتان احداهما فى وصف مصر لحمـلة نابليون والأخـرى فى مجموعة رسومات لبسيوس .. وهذا النقش يصور الطريقة التى كانت متبعة فى الولادة ، فالمرأة الحبلى ساجدة ووراءها ثلاث نساء ، هى الآلهة (نيث) ومساعدة لها ، ومتفرجة تحمل فى يدها رمز الحياة (عنخ) .. وأمامها المولدة والمرضـعة والخادمة التى ستتعهد الطفل بالرعاية فى طوره الأول .

وكانوا يعتبرون أن المجىء بالرأس هـو الطبيعى كما هو ظاهر من هذا الشكل ، وكما يدل على ذلك الحرف الهيروغليفى الرامز للولادة ، وهو يمثل المرأة الحبلى وهى ساجدة والطفل خارج من بين فخذيها برأسه وذراعيه (شكل ٢٢) ، كما أن هناك كتابة هيروغليقية لقاعة الولادة ترجع الى القرون المتأخـرة ، وهى أكثر واقعية ودقة فى رمزيتها ، اذ تصور علامة الولادة يعقبـــها حجران للتخصيص

شكل ٢٢

شكل ٢٣

(شكل ٢٣) ، أما عن الحجرين فقـد جاءت عنهما فى قرطاسة تورينو الجمـلة الآتية : « ومكثت كالوالدة على القرميد (الحجـر الأحمر) » ، كما أنه جاء فى التوراة عن قتل أولاد اليهـــود الذكور أن أمر فرعون : « وانظروا الى الحجرين فاذا كان الطفـل ذكرا فاقتلوه » .

يبدو اذن أن المرأة الحامـل كانت تلد وهى راكعة على حجـــرين بينهما فراغ . وما كرسى الولادة الحـــالى — من حيث الشكل — سوى هذين الحجرين موضوع عليهما ثالث مستعرض . وقد ظهرت عـلى نقش فى متحف القاهرة امرأة تلد وقد جلست فى مقصورة وذراعاها مبسوطتان ويداها على فخذيها وتسندها آلهتان (شكل ٢٤) ، الا أنه لم يصل الينا أى كرسى من تلك الكراسى ســـوى الذى كشف فى القـرنة فى مقبرة (خنموزى) ، وقال البعض انه كرسى لقضاء الحاجة وليس من كراسى الولادة (شكل٢٥) .

امراض النساء :

تناولت أمراض النساء جزءاً كبيراً من قرطاسة ابرز . وثلاث صفحات من قرطاسة كاهون . وخمسة أسطر فى قرطاسة برلين . وعشرة أسطر فى قرطاسة لندن . وسبع نبذ فى قرطاسة كارلزبرج . والظـــاهر أن كل ما ورد عن أمـراض النســاء قد نقل من المجمـــوعة الطبية التى ذكرها كليمـــان السكندرى ، فقال عنها ان الجزء الخامس

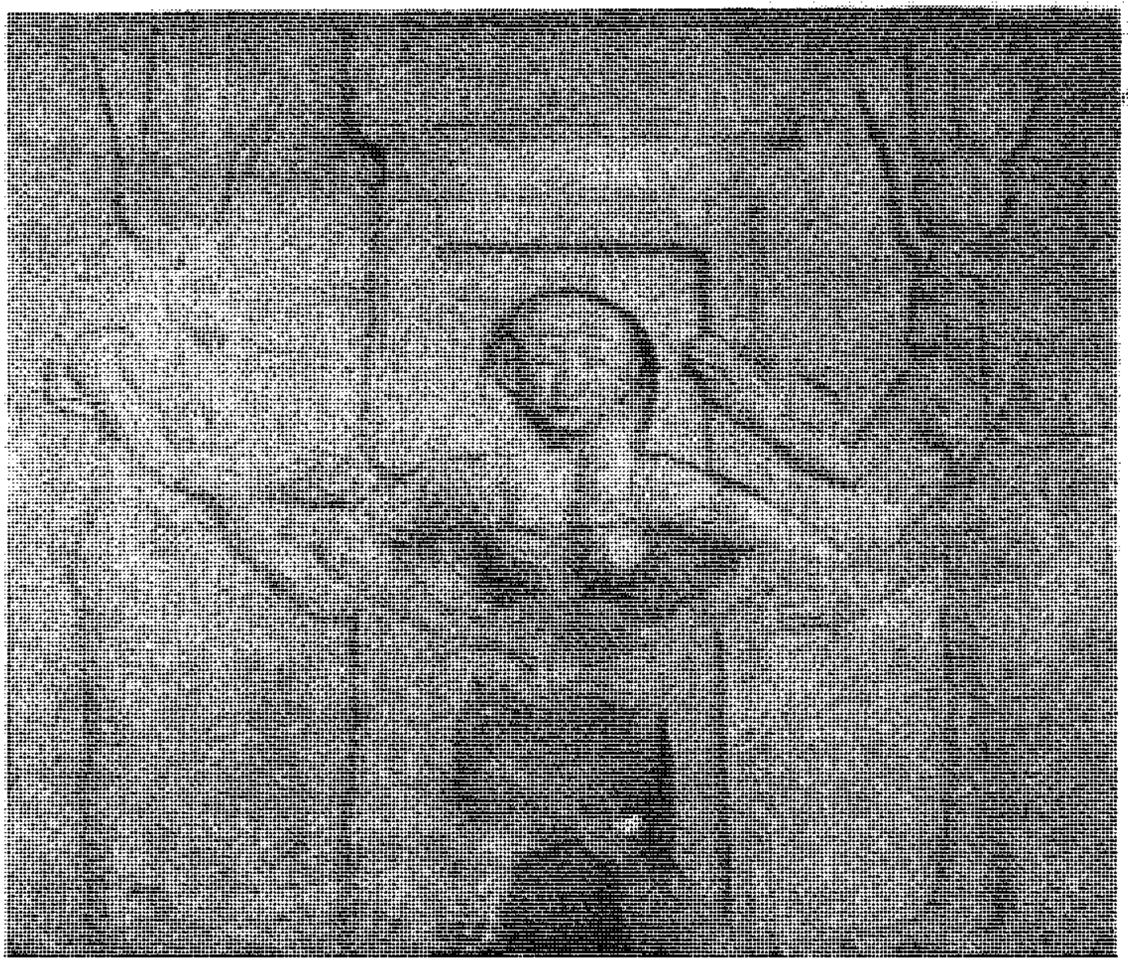

شكل ٢٤

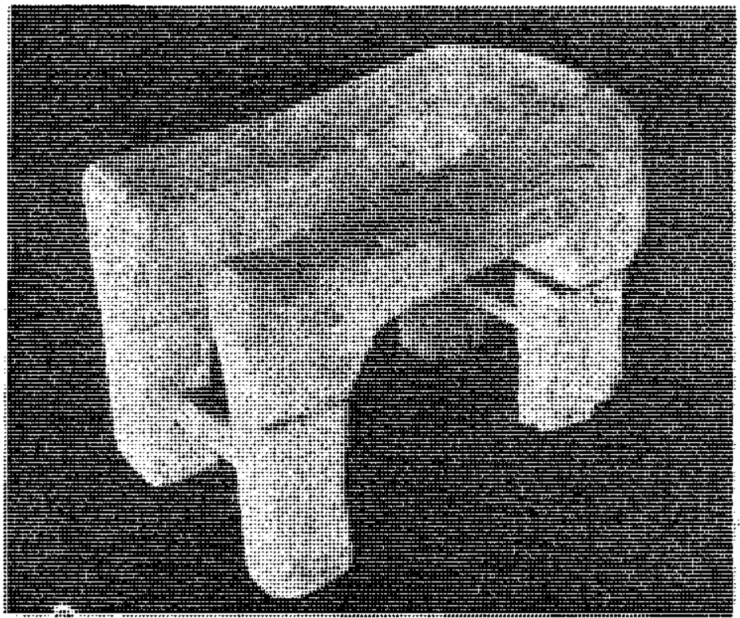

شكل ٢٥ كرسى للحاجة أو للولادة (٤)

منها مخصص للرمـــــد ، والسادس مكرس لأمراض النساء ، ومن الطريف أن قرطاسة كارلزبرج تناولت هذين الاختصاصين ذاتهما .

ومن المؤكد أن عوامل عديدة مثـــل الزواج المبكر ، والولادات المتعددة فى سن حديثة ، والأعمال المرهقة التى كانت تقوم بها نساء الشعب فى خلال الحمل ، وجهـــل القابلات ، كانت تسهم فى مضاعفة الأمراض التى كانت تصيب المرأة فى مصر القديمة .

وكانوا يعتقدون أن أعضـــاء الحوض عائمة متجـــولة فى التجويف الباطنى ، وقد ترتب على هذا الاعتقاد حرصهم على اعـادة الرحم الى مكانه فى حالة المرض ، ومساعدته فى ذلك باطلاق بخور من شمع معطر تحت المرأة . وكثيرا ما كان هذا الشمع يصب فى قالب على شكل (أبى قردان) وهو يمثـل الاله تحوت ليمنحه هذا الرمز فاعلية أكبر فى الشفاء .

وقد وصفوا سقوط الرحم وعالجوه ، اما بمختلف أنواع اللبوس ، أو بالتبخيرات المركبة من الشـــمع أو الغـــائط المجفف والتربنتين . وعالجوا التهابات الرحم وانفتاخ عنقه بالحقن المهبلية المحتوية على عصير بعض النباتات . كما عالجوا مرضا سموه (آكل الرحم) علاجا موضعيا .

وقد عزا المصريون الى مرض الرحـم أعراضا عـــديدة ، مثل الآلام التى تصيب أســـفل البطن والرقبة والأذنين وأمراض العيون والنوبات العصبية ، ووصف بردى كاهون بالتحديد مرضا يشمل مجموعة من العوارض هى التهاب الرحم وآلام المفاصل والعينين . ولعل هذا يطابق ما يسببه السيلان من الالتهاب الموضعى والروماتزم المفصـلى والتهاب العينين .

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف ، ولها طرف على شكل ملعقة أو منقار الطير (شكل ٢٦) . وقال عنها البعض انها كانت

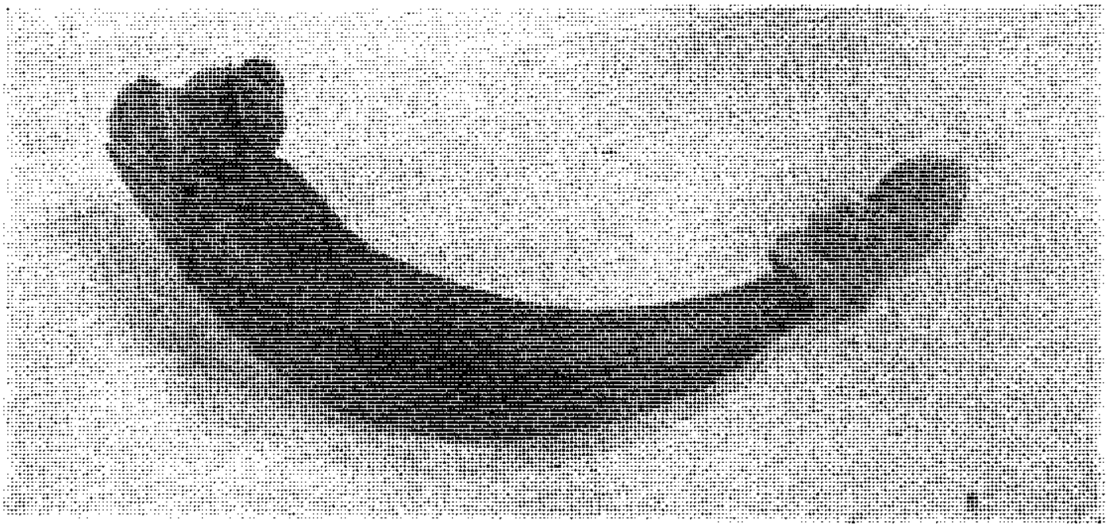

شكل ٢٦

تستعمل فى تقديم المشروبات للمرضى ، كما قال البعض الآخر انها كانت تستعمل للحقن الشرجية والمهبلية ، وهذا القول الأخير يصح الشك فيه . وقد وردت تلك الآلة على حجر السيدات الممثلة على سطح الآنية المخصصة لجمع لبن المرأة التى أنجبت طفلا ذكرا ، والذى كانت تسند اليه فوائد علاجية ممتازة (شكل ٢٧) .

شكل ٢٧

عن أمراض الرأس :

كان المصريون يعرفون الجمجمة والأم الجافة والمخ والسائل النخاعى .

ووصف المصريون الصلع البقعى (الثعلبة) وعالجوه بمراهم خاصة ، مصحوبة بتعاويذ موجهة الى الشمس الذى كثيرا ما صور على شكل شخص يمسك شعر عدو أو أسير. ولنذكر أن أمينوفيس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى كانوا صلعاء ، وأن الملكة نفيرتارى كانت تزدان بشعر مستعار .

ولقد عالجوا الصلع بزيت الخروع كما نفعل نحن الآن . وكانوا يخلطونه بدهن فرس النيل والتمساح والقط والثعبان والتيس البرى ، وكذلك بمخالب الكلب وحافر الحمار . واستعملوا أيضا للغرض نفسه مواد غريبة منها ما تختزنه الأظافر من قذارة ، وغائط الذباب ، وقد استعمل ديوسقوريدس رأس الذباب لنفس هذا الغرض .. ومن الأدوية السحرية مراهم مركبة من دم الثور وأحشاء الشيلان والأعضاء التناسلية للكلبة .

أما الصداع النصفى فكان يعالج بدهان الرأس برأس سمكة مقلية ، وهذا لتحويل الألم من رأس المريض الى رأس السمكة .

عن الانف :

كانت هناك طرق عديدة لعلاجه مما يصيبه من زكام أو عطاس ، ولقد وصفت أعراض الانفلونزا وصفا دقيقا فى التعزيمة التالية : « انصرف يا ابن الزكام الذى يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة وينخر المخ . وينصب المرض فى فتحات الرأس السبع (أى سيل مخاض الأنف والدموع ويحدث التهابا فى الأذنين والفم) . لقد أحضرت لك جرعة خاصة

ضدك .. الخ .. » . أما الدواء فكان مركبا من لبن امرأة وضعت ابنا ذكرا ، ومن صمغ ونبات لم يعرف نوعه حتى الآن ونوى بلح . ولا شك أن هذه الأصناف تحتوى على مواد ملطفة تحد من ألم التهابات الزور والأنف .

عن الأذن :

كانت الأذن تعتبر من أعضاء الجسم الهامة ، اذ أنه كان يعتقد أن روح الحياة تدخل من الأذن اليمنى ، وأن نفس الموت يتسلل عن طريق الأذن اليسرى وكانوا يعالجون أمراضه بالزيوت والأصماغ .

عن الأسنان :

كان اخصائيو الأسنان على درجات مختلفة ، فمنهم رؤساء الاخصائيين مثل (حزى رع) (شكل ٢٨) و (بسامتيك سنب) ومنهم الطبيب العادى مثل مصطبة (نى عنخ سمخت) طبيب الفرعون صاحورع (شكل ٢٩) و (نفريوتيس) الذى ذكر فى مصطبة (سبشات حتب) ، مما يدل على مركزهما الثانوى بالنسبة الى أصحاب المقابر.

وبالرغم من أن « التسويس » كان نادرا ، فان البيوريا والخراريج كانت منتشرة . وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة وزيادة الترف فى العصور القريبة حتى فى الطبقات العليا ، كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث الذى قال عنه اليوت سميث مازحا بعد أن وجد خراجين تحت أسنانه : « لم يكن على فرعون فى ترف طيبة أن يواجه دسائس

شكل ٢٨

الكهنة فحسب ولكنه كان ضحية لآلام أسنانه أيضا » .

ومن أسماء أمراض الأسنان التى لم يصل علماء اللغة الى تفسير مدلولاتها اسم « آكل الدم » ، وقد فسرها (ايبل)

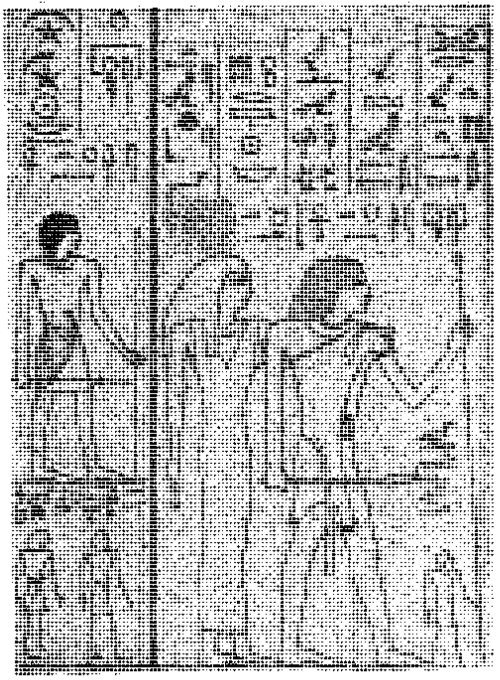

شكل ٢٩

شاهد طبيب فرعون (نى عنخ سخمت) ويرى صاحب المقبرة مع زوجته ممسكا الصولجان الى اليمين وفى اعلى اليسار . أما الرسم الصغير فى أسفل اليسار فهو طبيب الأسنان (من قورع عنخ) ويدل الموضع الذى وضع فيه رسمه على مركزه الثانوى بالنسبة للأول أو على أنه كان مرءوسا له .

بالأسقربوط وغيره بالبيوريا . وفى حالة حدوث التسويس كانوا يحشون الأسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس ، وكانت الأسنان القلقة تربط بالأسنان المجاورة لها بخيط من الذهب . وكانت الخراريج تصرف بوساطة تربنة صغيرة فى عظم الفك ، ولم يصلنا أى دليل على أنهم كانوا يخلعون الأسنان ، الا أن الأقباط بعدهم كانوا يخلعونها بالحديد بعد وضع مخدر من نبات الخربق على الخد أو على جذور الأسنان . ولتقيح اللثة كانوا يصفون المراهم المركبة من اللبن والبلح الطازج والخروب الجاف أو الأيسون والتربنتين وثمار الجميز .

عن الرئة :

يؤخذ من قرطاسة ابرز أنهم كانوا يعتقدون بوجود صلة بين الرئة والمعدة ، ويبدو ذلك من بعض التعبيرات فى العلاج كوصف بلع بخار الماء الساخن بدلا من استنشاقه (قارن التعبير الدارج الحالى : « شرب الدخان ») .. وقد كانت أغلب أدويتهم مكونة من اللبن أو الزبد أو العسل .. وجدير بالذكر أن هذه المواد جميعا تستعمل حتى يومنا هذا لتخفيف حدة السعال .

عن الطحال :

لم تذكر قرطاسة ابرز عن الطحال سوى جملة واحدة هى أن هنالك أربعة شرايين بالطحال تمده بالماء وتنقل اليه الهواء .

عن الكبد :

كان يوصف لعلاجه تناول التين والجميز وكان يوصف لعلاج عمى الليل .

عن الكليتين :

لم يأت أى ذكر لهما ... وربما يرجع ذلك الى مركزهما فى الجسم ، فان وجودهما خلف البريتون كان من شأنه أن صعب وصول أيديهم اليهما من الأمام أثناء عملية التحنيط . أما كلمة (دبيت) وهى أقرب كلمة لمعنى

الكلى فانها كانت تدل على القطن . على أنه وصل الينا وصف للمثانة ، فقد عرف أنها تتصل بشريانين ، كما عينت أدوية كثيرة لعلاج احتباس البول أو تعسره ، وكذلك للتبول غير الارادى والالتهاب الذى يصيب المثانة .. ومعظم هذه الأدوية كان يعتمد على نباتى الكرفس والبقدونس .

وقد ورد فى قرطاسة سميث وصف انتصاب الذكر والتبول غير الارادى نتيجة لانتقال فقرة فى الرقبة . كما ذكر البول الدموى أكثر من مرة وعالجوه بعلاج للبطن والقلب . وقد دلت بحوث روفر على وجود بويضات البلهارسيا فى بعض الموميات وقال البعض ان هذا المرض هو ما سموه عاع وان كان الشك مسموحا فى هذا الأمر (انظر « الأمراض المعروفة ») .

الرمـد :

لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار كما هو شأنها اليوم ، وكان عدد الأكفاء كبيرا . وكثيرا ما نجدهم ممثلين فى النقوش وهم يزاولون مهنة الغناء والموسيقى (شكل ٣٠) كالمقرئين والمغنين اليوم . وربما

شكل ٣٠

كان هذا نوعا من التأهيل . فلا غرابة اذن أن يكون جـــزء كبير من قراطيس البردى قد خصص لتلك الأمراض . وهكذا نجـد مائة وصفة مدونة فى قرطاسة ابرز من بينها واحدة تنسب الى آسيوى من بيلوس . وقد نقلت قرطاسة كارلزبرج وبعض القراطيس الأخرى بعض هذه الوصفات .

وكان أطباء العيون فى حماية الهـين هما « تحوت » الذى أشفى عين حوريس بعد أن مزقها سيت الشرير الى أربع وستين قطعة ، و « آمون » (الطبيب الذى يشفى الأعين بغير دواء ، آمون فاتح العينين والمخلص من الحول) .

ولكن الاله الخاص بأمراض العيون كان « دواو » (رسم ٣١) ومركز عبادته كان فى « ايونو » وهى عين شمس ، وفى ليتوبولس . الا أن العصور المتأخرة استبدلت « دواو » بحوريس دمنهور « الذى انتقل بدوره الى « ليتوبولس » على شاطىء النيـل الغربى أمام عين شمس ، وهى بلدة أوسيم الحالية .

والظاهر أن الروابط الوطيدة بين الوظائف الخاصـة بطقوس « دواو » فى عين شمس والاله « مخنتى ايرتى » الــه أوســيم (ليتوبلوس) والمتعلقة بعلاج العيون كانت مبنية على العلاقة بينهما فى الأساطير ، فقد حكى أن حوريس الناشىء فى دمنهور والذى حل محل « دواو » فى عين شمس ، أعطى عينا

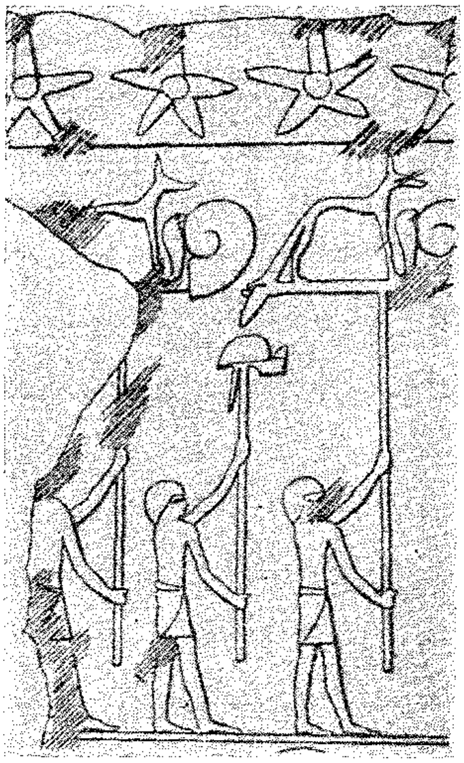

شكل ٣١
ثانى كاهن يحمل شارة (دواو)

من البلور الصخرى الى « مخنتى ايرتى » بعد أن فقد الأخير بصره .

وكانت دراية المصريين بأجزاء العــين الداخلية ماعدا الجسم الزجاجى دراية سطحية وقد ترتب على ذلك بالطبع أنهم لم يطلقوا أسماء على هذه الأجزاء ..

وكانوا يسمون الحدقة (الفتـــاة التى داخل العين) : وهذه التسمية نجد مثلها فى اللغة اللاتينية Fupilla (أى الفتــاة القاصر) وفى اللغة الاسبانية nina de los ojos (فتاة العينين) وفى اللغة العربية (انســان العين) . وكانوا يظنون أنها منبع الدمع ، أما الجفن فكانوا يطلقون عليه « ظهـــر العين » ، وقد أدت قلة الاصطلاحات الفنية

وربطها بالأربطة اللصاقة واستعمال الجبائر ، وفتح الخراريج والكي .

٤ — الأربطة والتدليك والحركات العلاجية .

٥ — السحر والتعاويذ .

العقاقير :

لعل استعمال العقاقير يعتبر مثلا طيبا لتأثير النظريات الدينية على الطب .. ويمكن القول بأن تركيب الأدوية وتعاطيها كانا دائما مرتبطين بالدين ، اذ أن العقاقير كانت تحضر فى معمل خاص فى المعبد اسمه (اسيت) فى جو تشيع فيه السرية المطلقة ، ويمتزج تركيبها بالطقوس التى لا مرونة فيها ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الأرقام كانت تتميز بأهمية خاصة دون غيرها كأن تتناول الأدوية أربع أو سبع مرات فى اليوم .. أو أن تخضع كميات العقاقير فى الأدوية المركبة لنسب معينة لها خواص حسابية مثلا — ١ : ٢ : ٤ : ٨ : ١٦ : ٣٢ : ٦٤ ، ولذا فقد ظن البعض أن فيثاغورس اقتبس بعض نظرياته الخاصة بمعانى الأرقام من قدماء المصريين وكانت المقادير فى حالة العقاقير تقاس بالحجم لا بالوزن .

ومن مظاهر السرية التى كانت تحيط بوسائل العلاج أن كثيرا من العقاقير كان لها أسماء لا يعرفها الا فئة من المختارين ، فقد سميت مثلا الا بنت بقلب الرخم والكروكوس بدم هيراقل .. الخ مما زاد فى صعوبة تفسير النصوص القديمة ، ومما يحمل على الظن بأن أدوية عديدة نحسبها خيالية أو سحرية كانت فى الحقيقة مفردات طبية عادية رمز اليها بأسماء سرية .

وكانت أغلبية الوصفات مركبة من مفردات عديدة ومكونة — شأنها كشأنها اليوم — من الجوهر الفعال (القاعدة) ، مضافا اليه مادة تزيل بعض خواصه غير المرغوب فيها (المصحح) ، ثم السواغ أى المادة التى تذيب المفردات . أما عن الشكل فان العقاقير كانت توصف للاستعمال الداخلى على شكل شراب مغلى أو منقوع ، أو حب أو مسحوق أو لعوق ، وللاستعمال الخارجى كانوا يستعملون اللبخ واللصق والنقط (القطرة) والمراهم والاستنشاقات والتبخير واللبوس والغسول الشرجى والمهبلى . وروى بلينوس ان المصريين عرفوا العلاج بالحقن الشرجية عندما شاهدوا طير (الحارس) أى الأبيس ، وهو يدخل منقاره الطويل فى شرجه مملوءا بالماء لتنظيف أمعائه .

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه ، ومن الطريف أن الكتابة الهيروغليفية للطبيب كانت — كما ذكرنا من قبل — مكونة من المفصد والهاون — وكأنهما يرمزان الى استعماله الجراحة والعقاقير — غير أن هذين الرمزين لم يستعملا الا لقيمتهما الصوتية فحسب .

ولم يعتادوا كتابة « الروشتات » (التذاكر) للمرضى ، والغالب أن قطع

الخزف التى وصفها جونكير ، والمكتوب عليها وصفات أدوية ، كانت فى الحقيقة كما قلنا مذكرات يدونها الطبيب أثناء زيارته للمريض ليتذكر نوع الدواء الذى كان عليه أن يركبه عند عودته الى منزله .

ولنذكر الآن بعض العقاقير التى جرى استعمالها فى هذا العصر . وقد جاء ذكر ما يقرب من ٥٠٠ نوع ، منها :

١ ـ المواد المعدنية :

مثل الحجارة الكريمة (الفيروز خاصة) والذهب والفضة للطلاسم ، والشبة وأملاح الأنتموان وكاربونات النوشادر والجير وصدأ النحاس (الزنجار) وأملاح الحديد والمانيزيا وسلفات الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاسا والصودا .

٢ ـ النباتات :

قد عرفت أولا من النقوش ، حيث رسمت أحيانا بجوار أسمائها ، ومن المقابر ، حيث عثر على بعضها ، مثل الخردل والخشخاش بجانب الموميات ، وكذلك من النصوص القبطية التى احتفظت بالكثير من أسمائها . ولكن الكثير منها لا يزال غامض المعنى ، وخصوصا لأن بعض الأسماء كانت سرية كما أسلفنا . ومن المواد المعروفة : السنط والابسنت ورجل الذئب والصبر واللوز والشبت والأيسون وشعر الجن والبابونك (وزيته كان يستعمل فى التدليك) والخروب (لتقوية الباه وطرد الديدان وتحلية الأدوية) والقرطم والشثم (وهو يستعمل حتى الآن فى مصر والسودان لعلاج الرمد) والكولشيك وحب الهان والكمون ، وعدة نباتات من فصيلة القرع والهندباء والحلبة والتين والعرعر والجنطانة والأرمان والحشيش والسكران والكتان والزنبق واللفاح والنعناع والخردل والمر والعفص وجوزة الطيب وحبة البركة والأفيون والبلح والفستق والفجل والخروع والزعفران وبصل العنصل والأصماغ الاستراك (لبنى الرهبان) .

٣ ـ المواد الحيوانية :

العسل وألبان البقرة والحمارة والعنز والمرأة . ولقد اعتبر المصريون القدماء فى جميع عصورهم أن لبن النساء عامة أرقى من لبن الحيوان ، ولكنهم كانوا يحلون فى المرتبة الأولى لبن المرأة التى أنجبت طفلا ذكرا . وقد عرف أن أبقراط أوصى بعدهم كذلك باعطاء اللبن نفسه ، كما فعل الأقباط وعرب مصر نفس الشىء بدورهم . ولما كانوا يعتبرون هذا اللبن سائلا ثمينا ، فقد كانوا يضعونه فى أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل ولدا وقرنا مثل الذى وصفناه من قبل (شكل٢٨) . واستدل علماء الآثار من النحافة الشديدة الظاهرة على الجزء السفلى لجسم هذا الطفل ، على أنه يمثل الطفل الهزيل الذى رزقت به أيزيس من أوزيريس ، والذى كان ضعيفا لأن أوزيريس أتى زوجته بعد وفاته .

ومن المواد الحيوانية الأخرى أكباد الثور والعجل والخنزير ، وكانت تستعمل لشفاء عمى الليل ، ورأس وصفراء بعض الأسماك ، والمخ ، ودهن الحيوانات وافرازاتها .. الخ مما ذكرنا الكثير منه سالفا .

الختام :

ان الأحكام التى نصدرها اليوم على الطب الفرعونى تعتبر ابتدائية سوف يستأنفها التاريخ وينقضها العلم ، وذلك لافتقارنا الى مصادر كافية للبحث ، فاننا نعتمد فى دراستنا وتكهناتنا على ثمانية قراطيس هى كل ما وصل الينا عن أربعين قرنا ، وهذه المخطوطات تختلف من حيث القيمة والدقة : فهى تارة تعتمد على الملاحظة الواقعية كقرطاسة « ادوين سميث » ، وهى تزخر تارة أخرى بالخرافات والخزعبلات كقرطاسة لندن .. فكأن خلفنا بعد عشرين قرنا يحكم على طبنا فى ضوء مؤلفات نسجت من مزيج غير متجانس من آخر ما وصل اليه الطب ومن كتب علم « الركة » .

واذا كان المصريون قد نشأوا فى جو من الجهل والسرية والسحر ، شأنهم شأن غيرهم من القدماء ، فانهم كانوا أول من حاول التخلص من هذه الخزعبلات . ويكفيهم شرفا أنهم وضعوا الأسس التى أقام عليها أبقراط ومن تلاه مبادىء الطب الحديث . وانهم أنشأوا أول جامعات العالم التى كانوا يسمّونها « بيوت الحياة » .

التحنيط

وصف قدماء المصريين الموت فى نقوشهم بأنه كالنقاهة بعد المرض .. وشبهوا الميت برجل ذهب ليقتنص الطيور فوجد نفسه وكأنه فى بلد مجهول ..

فالموت لم يكن فى نظرهم سوى خطوة تليها خطوات الحياة الأخرى أو ضرب من النوم تستطيع الروح أن تعود خلاله الى القبر فتتقمص الجسد من جديد وتستأنف معه فى « عالم الغرب » حياة طبيعية لا تختلف فى شىء عن الحياة الأرضية (شكل ١) ومن

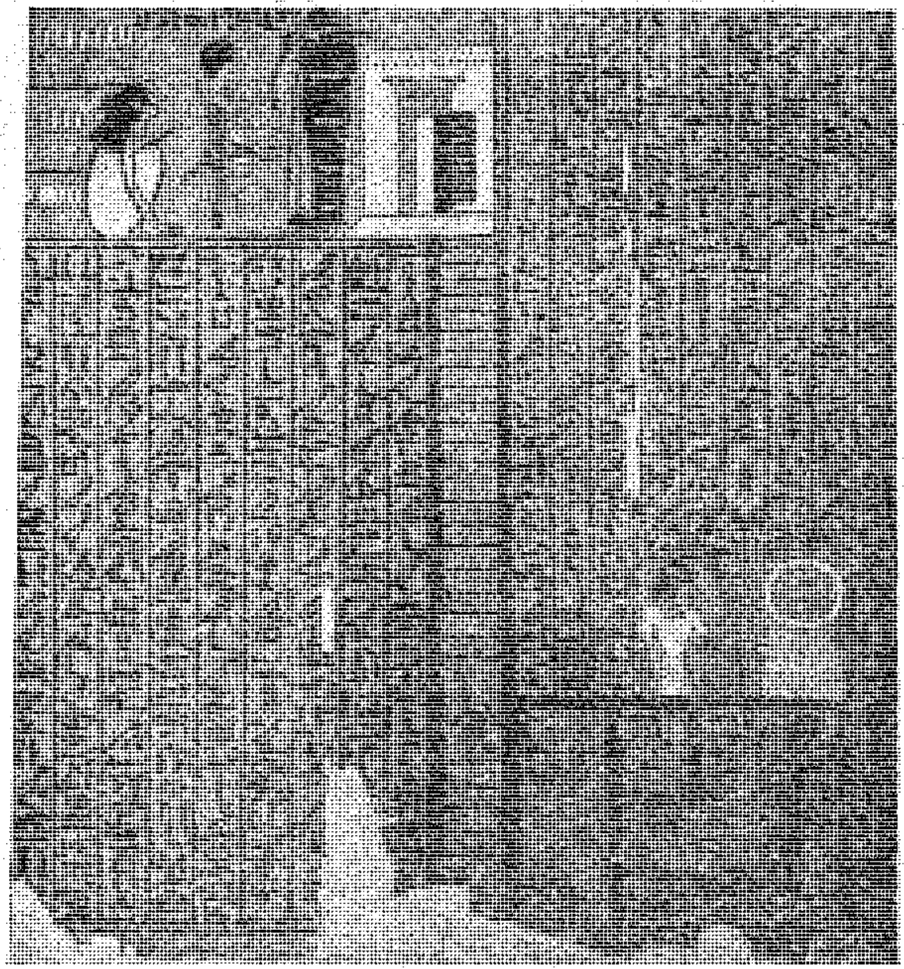

* شكل ١ منظر جنائزى على ورق البردى • ترى فى أعلى اليسار زوجة المتوفى وهى تحيى مومياء زوجها لآخر مرة • وكاهن أوزيريس يكمل مراسيم فتح الفم للمومياء الموجودة أمام المدفن • ويرى بئر عميقة تؤدى الى حجرة الدفن حيث الروح فى منظر العصفور ذى رأس بشرى التقليدى يطير ناحية الجثة ليعيدها الى الحياة • ونرى فوق حجرة الدفن الميت وقد ترك قبره وعاد حيا أمام شمس ساطعة •

ثم رأوا ضرورة تأثيث المقابر على غرار المنازل الحقيقية وتزويدها بأبواب وهمية تفضى الى العالم الآخر ، وامدادها بلوازم المعيشة كافة . فكانت مقابر الفراعنة والأثرياء عامرة بالطعام والشراب وبالرياش الحقيقية الفاخرة ، أما من هم أقل ثراء فكانوا يكتفون بتزويد مقابرهم بنماذج للمعدات اللازمة لهم بل برسوم ونقوش على الجدران تدب فيها الحياة — على حد تفكيرهم — بقوة السحر .

وما دامت هذه هى الصورة التى يرسمها قدماء المصريين للحياة التالية ، فليس من المستغرب اذن أن يشعروا بالحاجة الماسة الى الاحتفاظ بشكل الجسم وسماته ، وصيانته مما قد يتطرق اليه من الفساد ، حتى تتمكن الروح من التعرف عليه فتسكنه من جديد . ولا غرو فى أن يكون أبشع شىء اتجهت اليه أذهان كهنة آمون للانتقام من فرعون أخناتون الذى جردهم من سلطانهم ، هو تحطيم موميائه وازالة اسمه من آثاره ، كما أنه لا جدال فى أن تصرف تحتمس الثالث عندما محا اسم الملكة حتشبسوت من آثارها ، لا يمكن أن يوصف بمجرد التصرف الصبيانى ، اذ كان المقصود بمثل تلك الخطوة التى تبدو لنا ساذجة ، هو خلق متاعب للملكة المتوفاة فى حياتها الثانية لا يمكنها التغلب عليها .

ونحن نجد قدماء المصريين يتجشمون كل مشقة للمحافظة على سلامة المومياء ، بل لقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يستبدلون بالأيدى التى تتكسر بسبب اهمال المحنطين أطرافا صناعية (شكل ٢) وأنهم كانوا يركبون الجبائر للأذرع التى يكسرها

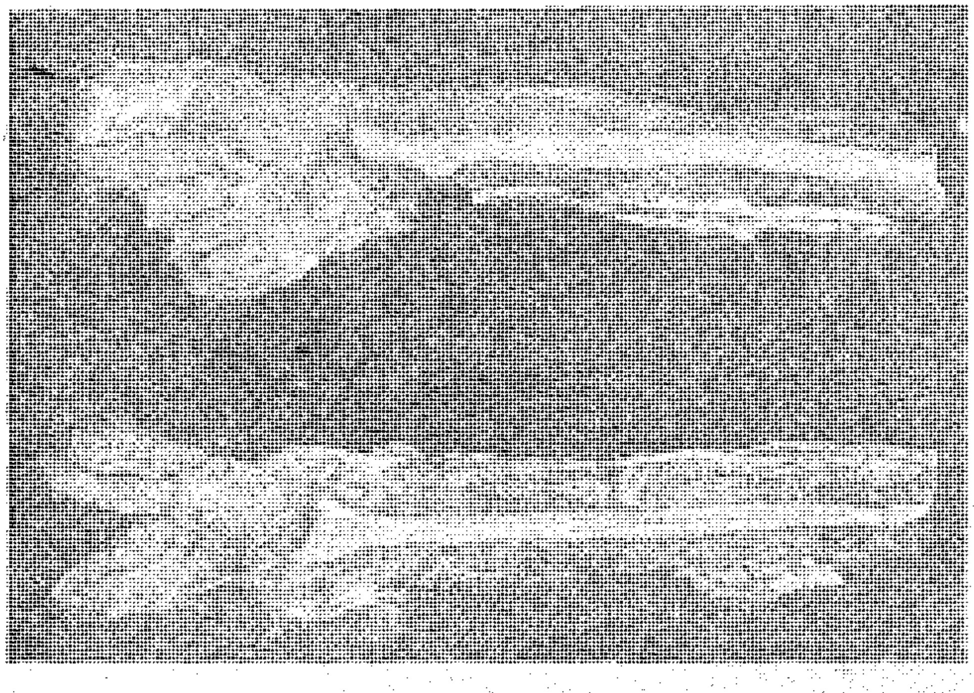

شكل ٢ — يد صناعية ملصقة بالمومياء

لصوص المقابر بعد الموت كأنما يبغون علاجها حتى بعد تحنيطها .

وقد كانت عملية التحنيط أقرب الى الطقس الدينى منها الى عمل رجل الطب أو المعمل . فكانوا يطلقون على المكان الذى تجرى فيه — وكان يقع عادة بالقرب من المعبد أو المدفن — اسم « المكان المطهر » و « دار الاله الطاهرة » أو « خيمة الرب » أو «كشك الاله » .

كانت العملية تستغرق بمراحلها كافة سبعين يوما يردد الكهنة خلالها الصلوات ويشرفون على المراسم والطقوس ، وقد ارتدوا أقنعة مصنوعة على شكل رأس ابن آوى الذى يمثل الاله « انوبيس » — وهو كان يعد اله الموتى الأول ويطلق عليه أحيانا « رئيس خيمة الاله » .

ونحن لا نعلم على وجه التحديد متى بدأت هذه العادة ، فمن المعروف أن فكر المصريين فى عصر ما قبل التاريخ لم يتجه الى تحنيط الموتى ، بل كانوا يدفنونهم فى رمال الصحراء الجافة فتجف أجسامهم بطريقة لا يتطرق اليها البلى . ومن الجائز أن منظر تلك الأجساد المحتفظة بكامل هيئتها ، والتى ما زلنا نعثر على بعضها فى الرمال حتى يومنا هذا — هو الذى أوحى لهم أول مرة فكرة الخلود .

وفى عهد الأسر ، دفنت جثث الملوك والأغنياء فى مقابر عميقة بطنت جدرانها بالخشب أو الطين المجفف . وتغير الكفن وأصبح مكونا من مجموعة من الأربطة المحكمة . وأخذ كل من القبر والكفن يتطور الى أن وصلت أساليب الدفن الى ذروة الكمال والتعقيد فى عهد توت عنخ أمون ، الذى حنطت جثته ثم لفت بست عشرة طبقة من الأربطة المصنوعة من الكتان ، ووضعت فى صندوق محفوظ فى صندوقين آخرين وتابوت من الحجر وأربعة هياكل . ولقد كان لابد أن يؤدى هذا التطور فى طرق التكفين ، فضلا عما وصلت اليه المقابر من السعة والعمق ، الى تأخير جفاف الجثة .. ومن ثم الى احتمال تعفنها والى ضرورة ابتكار حيل جديدة لضمان صيانة الجثة .. ومن هنا نشأت وسائل التحنيط .

وليس فى الاستطاعة تحديد الوقت الذى بدأ فيه قدماء المصريين تحنيط موتاهم . وأقدم مثال لهذا عثر عليه فى مقبرة الملكة « حتب — حرس » والدة خوفو ، اذ وجد فيها صندوق من المرمر مقسم الى أربعة أقسام ، حفظت فيها أحشاء الملكة بعد تحنيطها . وهذا يدل على أن بعض طقوس التحنيط قد شاعت فى عهدها ، بالرغم من أنه عثر على تابوتها شاغرا ، الأمر الذى يدل على أن اللصوص قد عبثوا بجثتها . وتأتى بعد ذلك مومياء من الأسرة الخامسة ، كانت محفوظة فى متحف كلية الجراحين الملكية بلندن ، ثم اندثرت نتيجة لضرب لندن بالقنابل عام ١٩٤١ .

ولقد ظلت عادة التحنيط متبعة فى مصر

منذ ذلك العهد النائى حتى بداية العهد المسيحى ، الا أنها كانت مقصورة فى أول عهدها على الملوك والكهنة ووجهاء القوم ، ولم تنتشر وتتغلغل الى الطبقات الفقيرة ، الا بعد وقت طويل .

وقد استمرت هذه العادة الى ما بعد عصر المسيحية . وتطورت خلال تلك الفترة الطويلة تطورا محسوسا .وازدادت على مر الأيام تعقيدا اذا ما قسناها بما كانت عليه من بساطة فى بداية عهدها . وقد بلغت ذروة الأبهة والكمال فى عهد توت عنخ آمون الذى غطيت مومياؤه بست عشرة طبقة من الضمادات الكتانية ، الخ كما أسلفنا .

وكانت تنظم عملية التحنيط بمراحلها المختلفة مؤلفات ورد ذكرها فى بعض القراطيس ، ووصل الينا منها اثنان يتناولان أساسا عملية التكفين . فاذا ما قارنا ما جاء فى هذين المؤلفين بأقوال المؤرخين اليونانيين وبنتائج التحاليل الحديثة ، استطعنا أن نرسم فى أذهاننا صورة اجمالية للعملية كلها . وسنحاول أن نوضح هنا الخطوط العريضة لطريقة التحنيط الأساسية وان كانت التفاصيل الثانوية تختلف باختلاف المعامل والعصور .

١ — كان المحنط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وهذا يحتاج الى معرفة دقيقة بهذا الجزء من الجسم . وكانت العملية تتم عن طريق الأنف اذ كانوا يدخلون فيها خطافا يخترق قاعدة الجمجمة ثم ينفذ الى تجويفها ويهرس المخ حتى يحوله الى هريسة تفرغ فى النهاية من الطريق نفسه . وفى أحوال نادرة كانوا يفتحون الجمجمة من العنق أو يخلعونها بأكملها ويفرغونها ثم يعيدون تثبيتها من جديد فوق التجويف الصدرى بعصا معدنية (شكل ٣) .

٢ — وبعد ذلك كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة الجانب الأيسر ، ويستخدم المحنطون فى ذلك سكينا من حجر الصوان . وذلك تمسكا منهم بالطابع الشعائرى المتوارث لمهنتهم . وقد أطلق المؤرخون اليونانيون اسم « البارشيست » على الأشخاص الذين كان يعهد اليهم بالقيام بهذه الخطوة . وكان هؤلاء ينتمون — على حد قول المؤرخين اليونانيين — الى طبقة منبوذة ، ربما بسبب ما تنطوى عليه مهنتهم من انتهاك للحرمات أو بسبب الخوف من أن تعلق بأجسامهم بعض الأرواح الشريرة التى سببت الموت . فكانوا يتوارون بمجرد انتهاء عملهم عن الأنظار هربا مما قد يحيق بهم من اهانات الرعاة ومخافة أن يرجمهم هؤلاء بالطوب والحصى .

٣ — ثم يأتى دور المحنط بالمعنى الصحيح للكلمة ، وكانت تحاط مهنته ، على عكس « البارشيست » ، بشتى مظاهر التبجيل حتى أنه كان يعتبر جديرا بمخالطة طبقة الكهنة . فكان يدخل يده فى فتحة البطن ليخرج منها الأحشاء فيما عدا الكليتين المختبئتين خارج الغشاء البريتونى ، وفيما عدا

شكل ٣ ــ رأس مومياء ثبتت على عنقها بعصا من المعدن

القلب الذى كان يترك فى مكانه موصولا بشرايينه عن قصد . فاذا حدث أن انتزع هذا العضو بطريق الخطأ تعينت اعادته الى وضعه الطبيعى لأن وجـــوده كان يعتبر ضروريا لاستمرار الحيـاة . ونحن نجـد فى بعض النصوص الجنائزية المنقوشة على التوابيت العبارة التالية :

« ايزيس تقول : ان قلبك ملكك . قلبك الحقيقى مستقر فى مكانه الى الأبدين . ولن يسرقه منك لصوص القلوب فى العـــالم الغربى » .

ذلك أن قدماء المصريين كانوا يعلقون على سلامة جثمان الميت أكبر الأهمية ويرون فى فنائه موتا بل موتا نهائيا هذه المرة .

وكانوا يتركون تجويف البطن والتجويف الصدرى فارغين أو يحشونهما بالكتان المشبع بالمواد العطرية أو بالصمغ أو بالقار .

٤ — أما الأمعاء فكانت تملأ فى العادة بالمر والأيسون والبصل — بعد غسلها فى نبيذ النخيــل والمواد العطرية — ثم تلف بالضمادات وتحفظ فى أوعيـة خاصـــة (شكل ٤) . وفى أحـوال نادرة جـدا — ولا سيما فى عهد الأسرات الحديثة — كانت تعاد الى البطن ثانية . فقد كشف عن موميات عدة تحوى الأمعاء الكاملة ، كما وجـدت موميات أخرى فارغة البطن دون العثور على أثر لأية فتحة فيها ، مما يتركنا فى حيرة بالغة بالنسبة للطريقة التى اتبعت فى تفريغها .

٥ — وفى بعض الأحيـــان كانت فتحة البطن تدرز بعـد ذلك وان كان يكتفى فى الغالب بسدها بالصمغ أو الشمع المذاب . كما كانت تسد بالمواد نفسها فتحات الأنف والفم والأذنين والعينين .

٦ — ثم يأتى دور التجفيف الذى هو فى الواقع أهم خطوة تضمن صيانة الجسم من التلف . ولقد قيل — ولكن دون ما دليل قاطع — ان المصريين كانوا يجففون أجسام موتاهم بوساطة الحرارة أو الجير . الا أن الأقرب الى الاحتمال أنهم كانوا ، كما روى هيرودوت ، يستخدمــون فى ذلك النطرون وهو ملح طبيعى كانوا يدفنون فيه الجسم لاستخلاص الدهن والرطوبة منه . ولقد عثر الباحثون بالفعل على بقايا من هــذا الملح

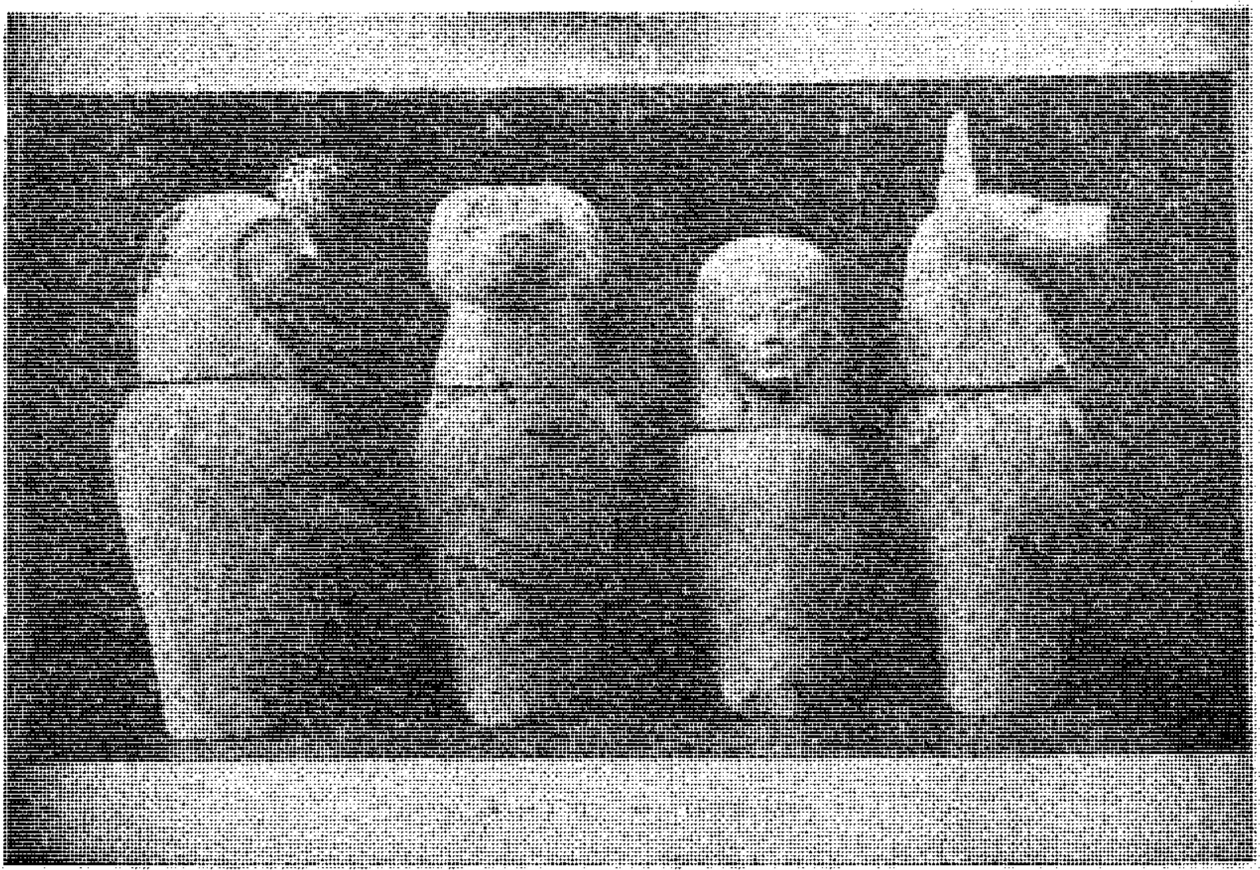

شكل ٤ ــ أوانى للأحشـــاء

عالقة بالكثير من المعامل والمقابر والآنية وأوعية حفظ الأمعاء والمناضد والأسرة وقطع القماش والأصماغ وغير ذلك من الأشياء التى كانت تستخدم فى التحنيط ، كما عثروا على آثار للملح نفسه فى أنسجة بعض الموميات وتجويفاتها .

ولعل تفضيل المصريين للنطرون على الملح بالرغم من رخص الأخير ومن معرفتهم لطرق حفظ الأسماك به يرجع الى ما كانوا ينسبونه لمادة النطرون من القدسية ، فانه كان يمزج بالبخور ويغسل به الفم فى أثناء الطقوس الدينية ، وربما كانت تسميته ومشتقاته كالنترات بلفظة قريبة من (نترى) المصرية التى تعنى الطاهر أو الاله ، ربما كانت مرتبطة بتلك الرمزية الدينية .

وقد تبادر الى الظن أولا أن الأجسام كانت توضع فى محلول من هذا الملح أو من ملح الطعام العادى . ولكن التجارب التى قام بها « لوقا » و « زكى اسكندر » على الطيور أثبتت أمرين : أولا أن الملح العادى يذيب الأنسجة ، وثانيا أن الأجسام تتحلل بسرعة بعد غمسها فى المحاليل . لذلك يغلب على الظن أنها كانت توضع فى النطرون الجاف .

ولما كان الجلد يتسلخ والأظافر تتساقط غالبا أثناء التجفيف ، فقد كانوا يعمدون ، تلافيا لهذه الخسارة الى اجراء قطع دائرى عند قاعدة الظفر ثم كانوا يربطونه بخيط نباتى أو من الذهب . فاذا كانت الجثة المحنطة جثة ملك أو واحد من الأثرياء وضعوا على طرف الأصبع لفافة خاصة أو « كستبانا » من الذهب أو المعادن لضمان بقاء الظفر فى موضعه . ويعتقد « دوسن » أنهم ، حرصا على سلامة الوجه ، كانوا يعمدون الى غمس الأجسام عموديا حتى الرقبة فى أوان كبيرة مملوءة بالنطرون بدلا من وضعها أفقيا فى أحواض . وقد نشر رسم لاناء صغير ، فقد للأسف كل أثر له ، يبرز منه رأس بشرى فوق الحافة بحيث يصلح أن يكون نموذجا لهذه الخطوة . والنص التالى المنقول من الأهرامات (٤٣٧) يؤيد هذا الرأى : « ان أوناس (الملك) قد قام من انائه بعد أن استراح » .

٧ — وبعد رفع الجسم من النطرون كانوا يغسلونه بمحلول من الملح نفسه وبالزيوت العطرية ، أما الأصابع فكانوا يصبغونها بالحناء فى كثير من الأحوال . وأما الفجوات الناجمة عن تحلل العضلات فى أطراف الجسم فكانت تحشى من خلال فتحات خاصة ، بنسالة الكتان أو نشارة الخشب أو الرمل ، فتعيد تلك العملية الفنية الدقيقة الى الجسم مظهره الطبيعى . وبعد ذلك كانوا يدهنون المومياء بالصمغ السائل .

وكانت هذه العمليات الأخيرة تجرى والجسم ممدود على مناضد خاصة قريبة الشبه بمناضد التشريح التى نستخدمها فى عصرنا هذا . وكانت كل من هذه المناضد مجهزة ببالوعة تسمح بتصريف السوائل

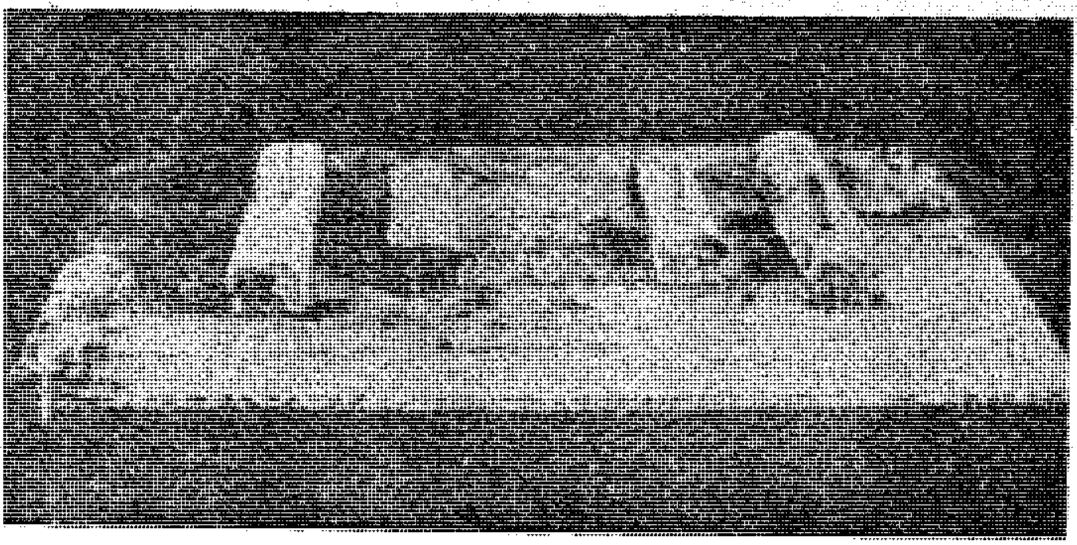

شكل ٥ ـ مائدة للتحنيط

وبكتلتين مستعرضتين من الخشب تمكنان من يتولون التضميد والتحنيط من تأدية عملهم بحرية من حول الجسم (شكل ٥) وقد عثر فعلا على نماذج عدة من تلك المناضد .

٨ — وأخيرا كان يأتى دور التضميد الفنى بشرائط لا تنتهى من الأربطة الكتانية المغموسة فى الصمغ وقد تناولت هذه الخطوة بالشرح قرطاستان ترجعان الى القرن الميلادى الأول . وقد نشرتا معا تحت اسم « شعائر التحنيط » وان كانتا تقتصران فى الحقيقة على عملية التضميد ، ويتجلى الطابع الشعائرى للعملية كلها لمن يطلع على نص هاتين اللفافتين. فان كل فقرة من فقراتهما الاحدى عشرة تتألف أولا من شرح العمليات المادية التى يجب على المحنط أن يجريها ، ثم من التعويذة السحرية التى تكفل عودة الحياة الى هذا الجزء المعين من الجسم بعد معالجته . فنجد مثلا أن الفقرة السادسة — وهى التى تتضمن التعليمات الخاصة بتغطية الأظافر والقدمين واليدين بالذهب — تختتم بعبارة موضوعها عودة اليدين والقدمين الى الحركة ، وأن الفقرة السابعة — التى تتناول مسح الجسم بالزيت لآخر مرة وتضميد الرأس وصب الزيت على الأربطة الكتانية — تتلوها تعاويذ تؤكد أن المتوفى قد استعاد القدرة على تحريك الرأس . وأخيرا نجد فى نهاية الفقرة الحادية عشرة عبارة موجهة للمتوفى تؤكد له أن بوسعه أن يمشى فى اطمئنان . وينتهى النص كله بالتعويذة التالية :

« انك تعيش ثانية ، فلقد رددت الى الحياة الى الأبد ، لقد عاد اليك شبابك الى الأبد » .

وعلى الوتيرة نفسها تقول الالهة « نفتيس » فى مكان آخر « لقد بعث الميت . فلقد ثبت رأسك فوق رقبتك ، وشد

أنوبيس عظامك ووهب جسمك القوى فلن يصيبه البلى » .

وكذلك تقول ايزيس فى نص آخـر : « لقد أزلت عنك عجزك عن الحركة .. انك تقف الآن بنفسك على قدميك .. وتمشى كما شئت تماما ، مثلما كنت تفعل وأنت على قيد الحياة » .

وبعد اكتمال العملية كانوا يجمعون كل ما تبقى من المواد والأربطة الكتانية المتسخة والأوعية الفـارغة ، ويودعونها فى ركن من القبر أو حفرة قريبة . وقد كان للكشف عن تلك البقايا أكبر الفضل فى مساعدتنا عـلى تصوير العملية كلها ، والتعرف على المـواد المستخدمة فيها .

على أن الطريقة السالفـة كانت باهظة التكاليف وتقابل ما نسميه الآن جنـازة من الدرجة الأولى . أما من هم أقل ثراء فكانوا يلجئون الى طرق أرخص وأبسط توفر لأبناء كافة الطبقات فرصة الحياة من جديد فى العالم الآخـر .

مهما يكن رأينـا الشخصى فى مبـدأ التحنيط ذاته فان هذا الحرص الشديد على الاحتفـاظ بأجسام الموتى ليس الا امتدادا لغريزة طبيعية هى غريزة حب البقاء أو حفظ النفس . ونحن نجد آثارا لنفس المسلك فى معظم الديانات الحديثة وليست الاعتراضات التى نسمعها اليوم على حرق الموتى الا دليلا على مدى نفورنا من أن يكون الفناء مصـيرا لأجسامنا .

وبالاضافة فاننا يجب أن نشكر لأسلافنا أخذهم به . فلولا هذا الحرص البالغ على الخلود من جانبهم ما أودعوا مقابرهم تلك الآثار البديعة التى تطلعنا — الى جانب قيمتها الفنية الصرفة — على معتقداتهم وأسـلوب حياتهم ودرجة المعرفة التى بلغوها . فبفضل هـذه الموميات نعرف اليـوم عن أجسام وأمراض الفراعنة الذين عاشوا منـذ أربعة آلاف عام أكثر كثيرا مما نعرف عن أجسام وأمـراض وليم الفـاتح وفردريك الأكبر وهارون الرشيد .

ثم ان طريقة التحنيط لابد أن تكون قد أطلعتهم منذ زمن مبكر جدا عـلى تكوين الأحشاء ومواضعها فى الجسم . ولا شك أن تعودهم على لمس الجثث ومعالجتها قد ساعد على رفع الحظر عن عمليتى تشريح الجثث وفحصها طبيا لمعرفة أسباب الوفاة . ولدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن بعض رجـال الطب ولا سيما مؤلف لفافة أدوين سميث (انظر « الطب ») قد مارسوهما بالفعل . ولقد أصبحت العمليتان فى عصر البطالمة جزءا من منهج تعليم الطب الرسمى ، وبفضـل استخدامهما المستمر تمكن الطب السكندرى من تصحيح الكثير من الأخطاء التى تقع فيها الشعوب التى تحرق موتاها أو التى ترى فى مثل هذه العمليات انتهاكا لحرماتهم . فليس من قبيل المصـادفة أن الطب السكندرى استطاع أن ينهض بالمعارف الخاصة بالدورتين

الدموية والعصبية ، فكان سباقا الى التفرقة بين الأوعية الدموية والأعصاب والى تسجيل وظائف كل منهما .

وكذلك الأمر فى مقابلة الأعضاء المصابة بتغيرات مرضية بأعراض المرض فانه لابد أن يكون قد دعم موقف أولئك الذين كانوا يردون الأمراض الى أسباب عضوية بحتة .

وفى الميدان العملى البحت ، ساعد استخدام هذه الأربطة البالغة الطول على البلوغ بفن التضميد حد الكمال ، وعلى خلق طبقة من الأخصائيين القادرين على تضميد أى جزء من الجسم مهما كان شكله باتقان تام . وهذا أمر يتضح لنا بجلاء من حاشية فى قرطاسة ادوين سميث تفسر عبارة « غطاء لاستخدام الطبيب » الواردة فى علاج الحالة رقم ٩ ، بأن هذا الغطاء « رباط يستخدمه الطبيب كما يستخدمه المحنط » .

ومن الطريف أن نجد أن عملية التحنيط التى كانت تمليها اعتبارات روحانية بحتة ، قد أسفرت عن كل هذه النتائج العملية الهامة .